

تَفْسِيرُ الْمَرْاعِي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقاً

الجزء السادس والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف

هي مكية إلا ثلاث آيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فدنية .

وعدة آياتها خمس وثلاثون ، نزلت بعد الجاثية .

ووجه اتصالها بما قبلها — أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل الشرك وتوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، ائْتُونِي بِكِتَابٍ

مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ
غَافِلُونَ ؟ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كَافِرِينَ (٦) .

شرح المفردات

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أى خوفوا ، معرضون : أى مولون
لاهون ، تدعون : أى تعبدون ، شرك : أى نصيب ، أنارة : أى بقية ، ومثلها الأثرة
(بالتحريك) يقال (سميت الإبل على أنارة) أى بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر :
أى جمع ، كافرين : أى مكذبين .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بإثبات أن هذا القرآن من عند الله ، لامن عند محمد كما تدعون
ثم ذكر أن خلق السموات والأرض مصحوب بالحق قائم بالعدل والنظام ، ومن
النظام أن تكون الأجل مقدرة معلومة لكل شيء ، إذ لا شيء فى الدنيا بدائم ،
ولا بد من يوم يجتمع الناس فيه للحساب ، حتى لا يستوى الحسن والسيئ ، ولكن
الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب ولم يفكروا فيما شاهدوا فى العالم من النظام
والحكمة ، فلا هم بسماع الوحي متعظون ، ولا هم بالنظر فى العالم المشاهد يعتبرون ؛
ثم نعى على المشركين حال آلهتهم وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم :
أخبروني ماذا خلق آلهتكم من الأرض ، أم لهم شركة فى خلق السموات حتى
يستحقون العبادة ؟ فإن كان لهم ماتدعون فها تولى دليلا على هذا الشرك المدعى بكتاب
موحى به من قبل القرآن أو ببقية من علوم الأولين ، وكيف خطر على بالسك أن

تعبدوها وهي لاستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة وهي غافلة عنكم، وفي الدار الآخرة تكون لكم أعداء وتبجحد عبادتكم لها .

الإيضاح

(حَم) الكلام في مثلها قد تقدم من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية وقد تقدم إيضاحه وتفسيره .

(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى ما خلقناها إلا خلقا ملتبسا بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه في هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ، لئلا يتساوى من أحسن في الدار الأولى ومن أساء فيها ، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه ، ومن دسّ نفسه ، وركب رأسه ، واتبع شيطانه وهواه ، وسلك سبل الغواية فلم يترك منها طريقا إلا سلكه ، ولا بابا إلا وجّهه .

ثم بين غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال :

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى مع مانصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقى هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأنى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون .

وبعد أن أثبت لنفسه الألوهية ، وأنه رحيم عادل ، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة ، ردّ على عبدة الأصنام فقال :

(قل رأيتم ماتدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) أى قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل

في خلق السموات والأرض وما بينهما والنظام القائم فيها المبني على الحكمة ودقة الصنع والإبداع في التكوين : هل تعقلون لهم مدخلا في خلق جزء من هذا العالم السفلي ، فيستحقوا لأجله العبادة ؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمد أدناه من أعلاه ، ويرتبط بعضه ببعض ، وكل فرد في الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيها ، أم هل تظنون أن لهم شركة في خلق العالم العلوي شمس وأقماره ، كواكبه ونجومه ، سياراتها وثوابتها .

وقصارى ذلك — نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه ، فقد نفى أن لها دخلا في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي استقلالاً ، ونفى ثانياً أن لها دخلا على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي ، ونفى ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضاً .

وتخصيص الشركة في النظم الجليل بقوله سبحانه « فِي السَّمَوَاتِ » مع أنه لا شركة فيها ولا في الأرض أيضاً — لأن الغرض إلزامهم بما هو مسلم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك ، نتملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة .

وبعد أن بكتهم وعجزهم عن الإتيان بسند عقلي ، عجزهم وبكتهم عن الإتيان بسند عقلي فقال :

(ائتوني بكتاب من قبل هذا أو أنارة من علم إن كنتم صادقين) أى إن كان ما تقولونه حقاً فائتوني أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب كالطورا والإنجيل يشهد بصحة ما تدعون لألهتكم ، أو ببقية بقيت عندهم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة . وتدل على صحة المسلك الذي سلكتموه .

وإخلاصة — إن الدليل : إما وحى من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، وإما

لإرشاد من العقل ، فإن كان الأول فأين الكتاب الذى يدل على أنهم شركاء ؟
وإن كان الثانى فأين هو ؟

وبعد أن أبطل شركة الأصنام فى الخلق بعدم قدرتها على ذلك — أتبعه بإبطاله
بعدم علمها بالعبادة فقال :

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن
دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يعبد من دون الله أصناما ويتخذهم آلهة ، وهم إذا
دعوا لا يسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة ؛ أى لا يجيبون أبدا ماداموا فى الدنيا ،
إذ هم فى غفلة عن دعائهم ، لأنهم أحجار ، فهم صم بكم لا يسمعون ولا يتكلمون .
وما أنكى هذا التوبيخ وما أمضَ أله هؤلاء المشركين على سوء رأيهم وقبح
اختيارهم فى عبادتهم ما لا يعقل شيئا ولا يفهم ، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم ،
ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصائب .

وبعد أن أبان أنهم لا ينفعونهم فى الدنيا ولا يستجيبون لهم دعاء — أبان حالهم
فى الآخرة فقال :

(وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى وإذا جمع
الناس لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يعبدونها فى الدنيا أعداء لهم ، إذ يتبرءون
منهم ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، فهم يقولون : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بهم ،
تبرأنا إليك ربنا منها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا .
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » وقوله حكاية عن إبراهيم
عليه السلام : « قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ
النَّارُ وَمَأَلِكُمُ مِنَ نَاصِرِينَ » .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي
مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ
مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
مُّبِينٌ (٩) .

شرح المفردات

المراد بالحق آيات القرآن ، افتراه : كذب عليه عمداً ، فلا تملكون لى من الله
شيئاً : أى لاتغنون عنى من الله شيئاً إن أراد عقابى ، تفيضون فيه : أى تخوضون
فيه من تكذيب القرآن ، يقال أفاض القوم فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، والبدع
والبديع من كل شيء : المبتدع الحديث دون سابقة له .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد — أعقب هذا بالكلام
فى النبوة و بين أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئاً من القرآن قالوا إنه سحر ، بل زادوا
فى الشناعة وقالوا : إنه مفترى ، فرد عليهم بأنه لو افتراه على الله فمن يمنعه من عقابه
لو عاجله به ؟ وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن فى نبوتى ، ويشهد لى بالصدق
والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إني لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائى لكم
إلى التوحيد ، ونهى لكم عن عبادة الأصنام ، وما أدرى مايفعل بى فى الدنيا ؟

ألموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ، ولا ما يفعل بكم ، أترمّون بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ، أم يفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل ؟ وإنى لا أعمل عملا ولا أقول قولاً إلا بوحى من ربى ، وما أنا إلا نذير ، لا أستطيع أن آتى بالمعجزات والأخبار الغيبية ، فالقادر على ذلك هو الله تعالى .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) أى وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التى أودعناها كتابنا الذى أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر فى قلب من سمعه .

ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال :

(أم يقولون افتراه) أى دع هذا واسمع القول المنكر العجيب : إنهم يقولون إن محمداً افتراه على الله عمداً واختلقه عليه اختلاقاً .

وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله :

(قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) أى قل لهم : لو كذبت على الله وزعمت أنه أرسلنى إليكم ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ولم يقدر أحد من أهل الأرض لا أتم ولا غيركم أن يحيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه القرية وأعرض نفسى لعقابه ، فالملوك لا يتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه ، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله فى الرسالة ، وهى الجامعة لأمر عظيم ، فقيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم فى دينهم ودنياهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّى لَنْ يُخِيرَنِى مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِذًا إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَتِهِ » وقوله : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله :
 (هو أعلم بما تفيضون فيه) أى هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من
 التكذيب بالقرآن والطعن في آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى .
 ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله فقال :

(كفى به شهيدا بيني وبينكم) فهو يشهد لى بالصدق فى البلاغ ، ويشهد
 عليكم بالكذب والجحود .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعيد الشديد على إفاضةهم فى الآيات .
 ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعالمهم يتوبون ويشوبون إلى
 الحق فقال :

(وهو الغفور الرحيم) أى ومع كل ما صدر منكم من تلك المظاعن الشنعاء
 إن أنتم تبتتم وأنبتتم إلى ربكم وصح عزمكم على الرجوع عما أنتم فيه ، تاب عليكم وعفا
 عنكم وغفر لكم ورحمكم .

وبعد أن حكى عنهم طعنهم فى القرآن — أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم
 المعجبية ، وهى طلبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات على حسب
 ما يريدون ويشتهون ، وكلها تدور حول الإخبار بشئون الغيب فقال :

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) أى قل لهم : لست بأول رسول بلغ عن ربه ،
 بل قد جاءت رسل من قبلى ، فما أنا بالغد الذى لم يعهد له نظير حتى تستكرونى
 وتستبعدون رسالتى إليكم ، وما أنا بالذى يستطيع أن يأتي بالمعجزات متى شاء ،
 بل ذلك بإذنه تعالى وتحت قبضته وسلطانه ، وليس لى من الأمر شئ ، وإلى ذلك
 أشار بقوله :

(وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) أى ولا أعلم ما يفعل بى فى الدنيا ، أأخرج
 من بلدى كما أخرجت أنبياء من قبلى ، أم أقتل كما قتل منهم من قتل ؟ ولا ما يفعل

بكم أيها المكذبون ، أترمّون بحجارة من السماء أم تحسف بكم الأرض ؟ كل هذا علمه عند ربي .

وفي صحيح البخارى وغيره من حديث أم العلاء أنها قالت : « لما مات عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، قلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أمّا هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإنى لأرجوه لخير ، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ولا بكم ، قالت أم العلاء فوالله ما أزكى بعده أبداً » .

وفي رواية الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس « أنه لما مات قالت امرأته أوامرة : هنيئاً لك ابن مظعون الجنة ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضب وقال : وما يدريك ؟ والله إنى لرسول الله ، وما أدري ما يفعل الله بي ، فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجوه رحمة ربه تعالى وأخاف عليه ذنبه » .

ومن هذا يعلم أن ما ينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشئون الغيب ، فهو فريضة على الله ورسوله ، وكفى بما سلف ردّا عليهم .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(إن أتبع إلا ما يوحى إلى) أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع شيئاً من عندى . ثم زاد الأمر تأكيداً فقال :

(وما أنا إلا نذير مبين) أى وما أنا إلا نذير أنذركم عقاب الله ، وأخوفكم عذابه ، وأتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسالتى ، ولست أقدر على شيء من الأعمال الخارجة عن قدرة البشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا
 إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ
 مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانَا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا وَيُشْرَى الْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ
 فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

المعنى الجملى

لا يزال الكلام موصولاً بسابقه ، فبعد أن نعى عليهم استهزاءهم بكتابه وقولهم
 فيه : إنه سحر مفترى ، ورد الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى يستنكروا
 نبوته ويطلبون منه ما لا قبل له به من المعجزات التي أمرها بيد الله لا بيده — أردف
 هذا بأمر رسوله أن يقول لهم : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب
 الذى جئتكم به قد أنزله الله على لآبلغكموه فكفرتكم به وكذبتموه ؟ وقد شهد شاهد
 من بنى إسرائيل الواقفين على أسرار الوحى بما أوتوا من التوراة على مثل ما قلت ،
 فأمن واستكبرتم ؟ ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء
 كعمار وصهيب وابن مسعود فقالوا : لو كان هذا الدين خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ،
 ثم ذكر أنهم حين لم يهتدوا به قالوا : إنه من أساطير الأولين ، ثم ذكر أن مما يدل
 على صدق القرآن أن التوراة وهى الإمام المقتدى به ، بشرت بمقدم محمد صلى الله

عليه وسلم فاقبلوا حكمها في أنه رسول حقاً من عند الله ، ثم أعقب هذا ببيان أن من آمنوا بالله وعملوا صالحاً لا يخافون مكروها ولا يحزنون لقوات محبوب ، وأولئك هم أهل الجنة جزاء ما عملوا من عمل صالح وما أجبوا إلى ربهم وانقادوا لأمره ونهيهِ .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) أى قل لهم : أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته ، لأنه سحر ولا مفترى كما تزعمون ، ثم كذبتم به وشهد أعلم بني إسرائيل بكونه من عند الله فآمن واستكبرتم — أفلمستم تكونون أضل الناس وأظلمهم ؟ .

والخلاصة — أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، وشهادة منصف من بني إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ما قلت فآمن به مع استكباركم — أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم ؟

وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام — فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبى وقاص قال : « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ) » .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزل في آيات من كتاب الله ، نزلت في « وَشَهِدَ شَاهدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ » . ونزل في : « قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

ثم ذكر أن في استكبارهم عن الإيمان هو ظلمهم لأنفسهم وكفرهم بآيات ربهم فقال :

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى

الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله اكفرهم به بعد قيام الحجة الظاهرة عليهم .

عن عوف بن مالك الأشجعي قال : « انطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً ، فقال : أبيتُم ، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفي ، آمنتم أو كذبتُم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أتى رجل تعلموني فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فينا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفهق منك ولا من أهلك ولا من جدك ، فقال فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شرّاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتُم لن يقبل منكم قولكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وعبد الله بن سلام فأنزل الله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ — إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه السيوطي .

ثم حكى نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة في القرآن العظيم والمؤمنين به فقال :

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) أي وقال كفار

مكة لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كهمار وصهيب وابن مسعود ومن لف

إفهم : لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ، فإن معالي الأمور لا تنالها

أيدي الأراذل ، وهؤلاء سقّاط الناس ورعاة الإبل والشاة ، وقد قالوا ذلك زعماً منهم

أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية مما تنال بأسباب دنيوية ،

وقد غاب عنهم أنها منوطة بكلمات نفسية وملكات روحية مبناهها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة ، وأن من فاز بها فقد حازها بجذافيرها ، ومن حُرِمَها فماله فيها من خلاق ، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء .

وعن قتادة : قال ناس من المشركين نحن أعز ونحن ونحن فلو كان خيرا ماسبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما أسلعت جُهينة ومزينة وأسلم وغفار قالت بنو عامر وغطفان وأشجع وأسد : لو كان هذا خيرا ماسبقتنا إليه رغاء البهائم والشاء .
فأجابهم الله عن هذا بقولهم :

(وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) أي وقد ظهر عنادهم واستكبارهم إذ لم يهتدوا به ، وسيقولون الفينة بعد الفينة والحين بعد الحين : هذا كذب ماثور عن الأقدمين ، انتقاصا له ولأهله ، واستكبارا عن اتباع الحق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكبر بطل الحق وغبط الناس » .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَأَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً أَصِيلًا » .

ثم رد عليهم طعنهم في القرآن وأثبت صحته فقال :

(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) أي ومما يدل على صحة القرآن أنكم لا تنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبني إسرائيل ورحمة لهم ، وهي قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يكون محمد صادقا في رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله ، وقد جاء بلسان عربي لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة وهو بشرى لمن أحسن عملا .

والخلاصة — كيف يكون إفكا قديما وهو مصدق لكتاب موسى الذي تعترفون بصدقه ، وهو بلسان عربى والتوراة بلسان عبرى ، فتصديق الأول للثانى داييل على اتحادهما صدقا — فبطل كونه إفكا قديما وثبت الصدق القديم .

وبعد أن ذكر طريق المبطلين أرشد إلى طريق الحقين وذكر جزاءهم فقال :
(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين قالوا ربنا الله لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ولم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم بعد مماتهم .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا — هم أهل الجنة ما كثر فيها أبدا ثوابا منا لهم كفاء ما قدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ
سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُثِبتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ
المُسْلِمِينَ (١٥) أولئك الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ
سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصَّادِقُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

شرح المفردات

الإيضاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلكه ، والإحسان : خلاف
الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ،

والكره (بالضم والفتح) كالضعف والضمف : المشقة ، وحمله : أى مدة حمله ، وفصاله : فطامه ؛ والمراد به الرضاع التام المنتهى بالفطام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، أوزعنى : أى رغبتى ووقفى ، من أوزعته بكذا : أى جعلته مولما به راغبا فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أى منتظمين فى سلكهم كما تقول أكرمى الأمير فى أصحابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيده سبحانه وإخلاص العبادة له والاستقامة فى العمل — أردف هذا بالوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله : « وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر إذ أسلم والداه ولم يتفق ذلك لأحد من الصحابة ، فأبوه أبو قحافة عثمان بن عمرو ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه إحسانًا) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما ، والبر بهما فى حياتهما وبعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الكلام بالأُم لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم كما ورد فى صحيح الأحاديث ومن ثم كان لها ثلثا البر ؛ فقال :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى إنها قاست فى حمله مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل إلى نحو أولئك مما ينال الحوامل ، وقاست فى وضعه مشقة من تعب الطلاق وألم الوضع ، فكل هذا يستدعى البر بها واستحقاقها للكرامة وجميل الصحبة .

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال :

(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أى ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية ، فتسهر الليالى ذوات العدد إذا مرض وتقوم بغذائه وتنظيفه وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر فى نموه وحسن صحته .

وفى الآية إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِيمَ الرَّضَاعَةَ » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع .

وأول من استنبط هذا الحكم منها على كرم الله وجهه وواقفه عليه عثمان وجمع من الصحابة رضى الله عنهم . روى محمد بن إسحاق صاحب السيرة عن معمر بن عبد الله الجهنى قال : تزوج من امرأة من جهمينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها ، فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبتس بى أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله فى ما شاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأتماه قتال ماتصنع ؟ قال ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له على : أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فلم تجده أبقي إلا ستة أشهر ، فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، على بالمرأة ، فوجدتها قد فرغ منها ، قال معمر فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبهه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابنى والله لا أشك فيه .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفاها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) .

(حتى إذا بلغ أشده) أى حتى إذا اكتمل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وهى فيما بين الثلاثين والأربعين .

(وبلغ أربعين سنة) وهذا نهاية استحصاد العقل واستكماله ، ومن ثم روى عن ابن عباس : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتهجز إلى النار ولهذا قيل :

إذا البرء وافي الأربعين ولم يكن له دون ما يهوى حياء ولا ستر

فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى وإن جرّ أسباب الحياة له العمر

قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط قبل الأربعين إلا ابني الخالة «عيسى ويحيى» .

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والديّ) أى رب

وقفنى لشكر نعمك التى غمرتني بها فى ديني ودنياي ، بما أتمتع به من سعة فى العيش وحمّة فى الجسم وأمن ودعة للإخلاص لك واتباع أوامرك وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والديّ من تحنهما علىّ حين ربياني صغيرا .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى واجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

(وأصلح لى فى ذريتي) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتي متمكنا من

نفوسهم راسخا فى قلوبهم .

قال ابن عباس : أجاب الله دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال

وعامر بن قهميرة ، ولم يُرد شيئا من الخير إلا أعانه عليه ، ودعا فقال : أصلح لى

فى ذريتي ، فأجابه الله تعالى ، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا ، فاجتمع له إسلام

أبويه وأولاده جميعا ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ

صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

(إني تبت إليك وإني من المسلمين) أى إني تبت إليك من ذنوبي التي فرطت مني في أيامي الخوالي ، وإني من الخاضعين لك بالطاعة المستسلمين لأمرك ونهيك ، المنقادين لحكمك .

روى أبو داود في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُبَلِّغهم أن يقولوا في التشهد : اللهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، وجنبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا ، وتُبَّ علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجعلنا شاكرين لنعمتك ، مُتقين بها عليك ، وأتممها علينا .

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال :

(أولئك الذين تتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالح الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ، ويصفح عن سيئات أعمالهم التي فرطت منهم في الدنيا لما لم تكن عادة لهم ، بل جاءت بحافز من القوة الشهوانية أو القوة الغضبية فلا يعاقبهم عليها ، وهم منتظمون في سلك أصحاب الجنة ، داخلون في عدادهم .

ثم أكد الوعد السابق بقوله :

(وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) أى وعدهم الله الوعد الحق الذي لا شك فيه وأنه موفٍ به .

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبي وقاص وعلى أبي بكر الصديق اللذين قيل في كل منهما إن الآية نزلت فيه تنطبق على كل مؤمن ، فهو موصى بالديه ،

مأمور أن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى في إصلاح ذريته ، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة .

وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمْ أَتَمَدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَهِيَ اسْتَفْثَانِ اللَّهِ وَيْلَكَ آمِنْ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨) وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ (١٩) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبَتْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

أَفٍ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أى أبعث من القبر للحساب ، خلت القرون من قبلي : أى مضت ولم يخرج منها أحد ، يستفثان الله : أى يقولان الغياث بالله منك ، يقال استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد أنهما يستفثان بالله من كفره إنكارا له واستعظاما له حتى لجأ إلى الله في دفعه كما يقال العياذ بالله من كذا ، ويلاك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيئه وترك ما هو فيه وأخذ بما ينجيهِ ، أساطير الأولين : أى أباطيلهم التي سطروها في الكتب من

غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أى وجب عليهم قوله لإبليس «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِنْ تَبِعِكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» من الخاسرين : أى الذين ضيعوا نظرهم الشبيه برءوس الأموال باتباعهم ههزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحداها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودركة إذا اعتبرت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودركات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أى شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أى شبابه وقوته ، الهون : أى الهوان والذل ، تفسقون : أى تخرجون من طاعة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حال الداعين للوالدين ، البررة بهما ، ثم ذكر ما أعد لها من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقين للوالدين المتكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لاشك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين وخرافاتهم ، ثم ذكر أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار .

ثم أردف هذا بأن لسكل من البررة والكفرة منازل عند ربهم كفاء ماقدموا من عمل وسيجزون عليها الجزاء الأوفى ، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار : أنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق وتعايطم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والحزى والآلام اللوجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

الإيضاح

(والذى قال لوالديه أف لكما ، أتمداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) أى والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من

قبورهم ومجازاته إياهم بأعمالهم : أف لكما : إني لضجر منكما ، أتقولان إني أبعث من قبري حيا بعد موتى وفنائى وما لحقنى من بلى وتفتت عظام ؟ إن هذا لعجب عجب فهامى ذى قرون مضت ، وأم قد خلت من قبلى كماد وثمود ولم يبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتى كما تقولان لبعث من قبلى من القرون الغابرة ؛ ألا ترى إلى قول من قال :

ما جاءنا أحد يخبر أنه في جنة لما مضى أو نار

وزعم مروان بن الحكم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ردت عليه عائشة رضى الله عنها . أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد رأى لأمير المؤمنين (يعنى معاوية) في يزيد رأيا حسنا أن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : سنة هرقل وقيصر ^(١) إن أبا بكر رضى الله عنه ما جعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : أأنت « الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفٍ لَكُمَا » فقال عبد الرحمن : أأنت ابن اللعين الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك ، فسمعت عائشة فقالت لمروان : أنت القاتل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبت والله ما فيه نزلت ، نزلت في فلان بن فلان .

والحق أن الآية لم ترد في شخص معين ، بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الإيمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فيأبى وينكر .
(وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق) أى ووالداه يستصرخان الله عليه ويستغيثانه أن يوقعه إلى الإيمان بالبعث ويقولان له حثا وتحريضا : هلا كالك صدق بوعد الله وأنت مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله الذى وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لاشك فيه .

(١) يريد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

والخلاصة — إنهما يستعظمان قوله ويلجآن إلى الله في دفعه ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحياه على ترك ما هو فيه ويشعراه بأن ما يرتكبه جدير بأن يهلك فاعله .

ثم ذكر ردّه عليهما مع الاستهزاء بهما والتعجب من حالهما .
(فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين) أى فيقول مجيباً والديه راداً عليهما نصحهما مكذباً بوعده الله : ما هذا الذى تقولان لى وتدعوانى إليه ، إلا ماسطره الأولون من الأباطيل ، فأصبتها أنتما وصدقتما به ، ولا ظلّ له من الحقيقة .

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا فقال :
(أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس)
أى هؤلاء الذين هذه فهم أوصاهم الذين وجب عليهم عذاب الله وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعتّوا عن أمر ربهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الجن يموتون قرناً بعد قرن كالإنس ، قال أبو حيان فى البحر : قال الحسن البصرى فى بعض مجالسه : الجن لا يموتون ، فاعترضه قتادة بالآية فسكت .

وفىها ردّ أيضاً على من قال : إنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، لأنه رضى الله عنه أسلم وجبّ عنه ما قبل وكان من أفاضل الصحابة ، أما من حق عليه القول فهو من علم الله تعالى أنه لا يسلم أبداً .

ثم ذكر العلة فى هذا العذاب المهيّن فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) لأنهم ضيعوا فطرم التى فطرم الله عليها واتبعوا الشيطان ، فعبثوا ببيعهم الهدى بالضلال ، والنعم بالعذاب .

ثم ذكر أن لكل من الفريقين الذين قالوا ربنا الله ، والذى قال لوالديه مراتب متفاوتة فقال :

(ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) أى ولكل من الأبرار والفجار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة على حسب أعمالهم من خير أو شر في الدنيا ، وليوفهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً حينئذ ، فلا يعاقب السيء إلا بعقوبة ذنبه ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبغض المحسن منهم ثواب إحسانه .
وبعد أن تبين سبحانه أنه يعطى كل ذى حق حقه — بين الأهوال التي يلاقيها الكافرون فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى واذكر لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون في النار ، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : إن كل ما قدر لكم من اللذات والنعم قد استوفيتموه في الدنيا ولنتموه ولم يبق لكم منه شيء ، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزي جزاء استكباركم وفسوقكم عن أمر ربكم وخروجكم من طاعته .

وفي هذا تحريض على التقلل من زخرف الدنيا وزينتها والأخذ بالتقشف فيها .
أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقي عن ابن عمر أن عمر رضي الله عنه رأى في يد جابر بن عبد الله رضي الله عنه درهما فقال ما هذا الدرهم ؟ قال أريد أن أشتري به لأهلي لحماً فقموا إليه ، فقال : أكلنا اشتبهتم شيئاً اشتريتموه ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وروى الحسن عن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : لأننا أعلم بخفض العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاً^(١) وصناباً وصلائق

(١) الصلاء : الشواء بالمد والكسر ؛ والصناب : صباغ (سلطة) يتخذ من الخردل والزبيب ، والصلائق : الحملان المشوية

ولكنى أستبقى حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال : « أَذْهَبَتْكُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وأخرج أحمد والبيهقي فى شعب الإيمان عن ثوبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده من أهله بفاطمة ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضى الله عنها ، فقدم من غزاة فأتاها فإذا عِشْج (بكسر فسكون ، وهو ثوب من شعر غليظ) على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قُلْبَيْنِ (مثنى قلب بضم فسكون السوار) من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الست وزعت القليلين من الصبيتين فقطعتهما فبكيا ، فقسمت ذلك بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبكيان ، فأخذ ذلك رسول الله منهما ، وقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بنى فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر فاطمة قلادة من عَصَب (بفتح فسكون خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتى : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا . وقد كان السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع ، بدليل قوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

نعم إن الاحتراز عن التمتع أولى ، لأن النفس إذا اعتادت ذلك وألفته صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه ، والله درّ البوصيرى إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تنطمه ينظم
والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : أن على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو قفارا (الطعام بلا أدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذة عادة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عديم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها

ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمد أصله ، ولا يجعله ديدناً له .

قصص هود عليه السلام مع قومه عاد

وَإِذْ كَرِهَ آخَا عَادٍ إِذْ أُنْذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتْ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَلَيْكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطَرٌ نَا ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْتِدَّةً فَأَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعَهُمْ وَلَا أَبْصَارَهُمْ وَلَا أَفْتِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَكَرَ لَكُمْ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ (٢٨) .

شرح المفردات

أخاعاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمى به واد بين عمان ومهرة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سياره في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرم ، والنذر : واحد من نذير أى منذر ، من بين يديه : أى من قبله ، ومن خلفه : أى من بعده ، لتأفكنا : أى لتصرفنا ، عن آلهتنا : أى عن عبادتها ، بما تعدنا : أى من معاجلة العذاب على الشرك ، إنما العلم عند الله : أى العلم بوقت نزوله عند الله ، والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء قال الأعشى :

يا من رأى عارضا قد بث أرمقه كأنما البرق فى ساقاته الشعل

مستقبل أوديتهم : أى متجها إليها ، تدمر : أى تهلك ، حاق : أى نزل ، صرفنا : أى بيننا ونوعنا ، الآيات : الحجج والبر ، فلولا : أى فهلا ، نصرهم : أى منعمهم ، قربانا : أى متقربا بها إلى الله ، ضلوا عنهم : أى غابوا عنهم ، إفكهم : أى أثر إفكهم وصرفهم عن الحق ، وما كانوا يفترون : أى وأثر افتراءهم وكذبهم .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تجدّهم فتىلا ولا قطميرا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أردف هذا بذكر قصص عاد وضرب لهم المثل ليعتبروا فيتركوا الاغترار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله ، فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جندا ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم ولم يغن عنهم ما لهم من الله شيئا .

الإيضاح

(واذكر أفعالهم إذ أنذر قومهم بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ماجئتهم به من الحق - هوذا أفعالهم فقد كذب قومهم بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهة ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناسحا : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم الهول «يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» .

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى قال قومهم له : أجبنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ماتدعوننا إليه وإلى اتباعك فيما تقول ؟ هلم فهات ماتعدنا به من العذاب على عبادة مانعبد من الآلهة إن كنت صادقا فى قولك وعيدك .

والخلاصة - أنزلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها ؟ فأتنا بما تعدنا من معاملة العذاب على الشرك إن كنت صادقا فى وعيدك ، وقد استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم لوقوعه كما قال تعالى . «يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا» .

فردّ هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندى فلا أستطيع تعجيله ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال :

(وأبلغكم ما أرسلت به إليكم) من ربكم من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربي .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال :

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى وإنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئتمكم به ، بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر محيى العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأقتهم فقال :

(فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحابة يعرض فى أفق السماء متجها إلى أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، ظنا منهم أن غيثا قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من واد لهم يقال له المعتب ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيرا .
ولما سمع هود مقالهم وشامه مليا قال :

(بل هو ما استعجلتم به) من العذاب إذ قلتم « فَأَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ثم فسر هذا العارض وبين حقيقته فقال :

(ريح فيها عذب أليم) أى بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويحلكم كأس الدابر .

ثم وصف هذه الريح فقال :

(تدمر كل شيء بأمر ربها) أى تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها بإذن ربها .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرَّيْمِ »
أى كالشيء البالى الخلق .

ثم ذكر مآل أمرهم بعدها فقال :

(فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أى نجاءتهم الريح فدمرتهم فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، إذ قد اجتاحت الأموال وأذهبت الأنفس وجعلتها أثرا بعد عين .

روى عن ابن عباس : أن أول ما عرفوا أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعتها الريح وصرعتهم : وأحال الله عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت الريح عنهم الرمال فاحتملتهم فطرحتهم في البحر . أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، فإذا أخيلت السماء تغير لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سري عنه ، فسأنته ؛ فقال عليه السلام لا أدري لعلة كما قال قوم عاد (هذا عارض ممطرها) » . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله مستجما ضاحكا حتى أرى منه لهواته ^(١) وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيا وريحا عرف ذلك في وجهه ، قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ، قال : يا عائشة وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » . وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نُصِرْتُ بالصَّبا ، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ ^(٢) » .

(١) واحدها لهاة : وهى اللعنة المشرفة على الخلق فى أقصى سقى الفم .

(٢) الصبا : ريح الشمال ، والدبور : ريح الجنوب .

وقد قال شاعرهم يحكي هذا القصص فيما رواه ابن الكلبي :

فدعا هود عليهم دعوةً أضحوا هُوداً
عصفت ريح عليهم تركت عاداً خموداً
سُخرت سبع ليال لم تدع في الأرض عوداً

(كذلك نجزي القوم المجرمين) أى كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب في الدنيا ، فأهلكناهم بعدابنا ، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متاد في غيّه .
ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد .

ثم أخبر سبحانه عن قوة عاد بقوله :

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى ولقد مكنا عاداً الذين أهلكتناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناهم منها ما لم نعطيكم مثله ولا قريباً منه من الأموال الكثيرة وبسطة الأجسام وقوة الأبدان — وهم على ذلك مانجواً من عقاب الله ، فتدبروا أمرهم وفكروا فيما يعملون قبل أن يحل بكم العذاب ، ولا تجدون منه مهرباً .

ونحو الآية قوله : « كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ » .

(وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) أى إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصاراً ليروا مانصبناه من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكمة الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم وقرابهم من جوار ربهم ، بل صرفوها في طلب الدنيا ولذاتها ، لاجرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم بها ودوام عبادته .

ثم بين العلة في عدم إغناء ذلك عنهم فقال :
 (إذ كانوا يحجدون بآيات الله) أى لأنهم كانوا يكذبون رسل الله وينكرون
 معجزاتهم .

(وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم ما سخروا به فاستمجلوه
 من العذاب .

وفى هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه ،
 فإن عادا لما اغتروا بدنيهم ، وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم
 تقن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئا — فأهل مكة مع عجزهم وضعفهم أولى .

ولما أخبر بهلاكم على ما لهم من المسكنة العظيمة ، ليعتظ بهم من سمع أمرهم ،
 أتبعه بذكر من كان مشاركا لهم فى التكذيب ، فأدركه سوء العذاب كما أدركم فقال :
 (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) أى ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول
 قريتم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وقد كانوا بالأحقاف يحضرموت ، وثمود
 وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وسيل باليمن ، ومدين ، وكانت فى طريقهم فى رحلاتهم
 صيفا وشتاء ، بعد أن أنذرناهم بالمثلثات ، فلم يغن ذلك عنهم شيئا فأخذناهم أخذ
 عزيز مقتدر .

(وصرفنا الآيات عنهم يرجعون) أى وبيننا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا
 ليرجعوا عن غيرهم الذى استمسكوا به لحض التقليد ، أو لشبهة عرضت لهم ، فحل
 بهم سوء العذاب ولم يحذروا لهم نصيرا ولا دافعا لعذاب الله ، وهذا ما عناه
 سبحانه بقوله :

(فلولوا نصركم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم) أى فهلا
 نصركم أوثانهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتها قربانا يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا ،
 حين جاءهم بأسنا فأنقذوهم من عذابنا إن كانوا يشفعون عنده .

وفي هذا تقرير لأهل مكة وتأييد لهم على أنه لو كانت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تنقذ عنهم شيئاً ، أو تنفعهم عنده — لأغنت عن كان قبلهم من الأمم الذين أهلكوا بعبادتهم إياها ، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم ، أو لشفعت لهم عند ربهم ، لكنها أضرتهم ولم تنفعهم ، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها ، فاحترام أن يقنّبوا لما هم فيه من خطئ الرأي وسوء التقدير للأمور .

(وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصره آلهتهم لهم وضلالهم عنهم — أثر من آثار إفكهم الذى هو اتخاذهم إياهم آلهة ، ونمرة افتراءهم على الله الكذب .

استماع الجن للقرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) .

شرح المفردات

صرفنا : أى وجهنا ، والنفر : ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سموا بذلك : لأنهم ينفرون إذا حاربهم أمر لكفائته ، أنصتوا : أى اسكتوا ، قضى : أى فرغ

من تلاوته ، وتوا : أى رجعوا ، منذرين : أى مخوفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جن نصيبين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نينوى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادى نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن ينذر الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفرأ منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب الله إذا هم استمروا على الضلال . أجاره الله من العذاب : أنقذه منه ، وداعى الله : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليس بمعجز فى الأرض : أى لا ينبجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا ببيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول عليه السلام كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن .

واعلم أن عالم الملائكة وعالم الجن لا يقوم عليهما دليل من العقل ؛ فهو بعزل عن ذلك ، وإنما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط ، فعلىنا أن نؤمن بما جاء به فحسب ولا نزيد على ذلك شيئا ، ولا نتوسع فى بحثه وتأويله وتفصيله ، فإن ذلك من عالم الغيب الذى لم نؤت من علمه كثيرا ولا قليلا ، فعلىنا أن نؤمن بأن اتصالا قد تم بين النبى صلى الله عليه وسلم وعالم الملائكة ، وبه تلقى الوحى على أيديهم ، وأنه اتصل بعالم الجن ، فعلمهم وبشرهم وأنذرهم ، لكننا لا ندرى كيف كان الاتصال ولا كيف تلقوا عنه القرآن ، ولعل تقدم العلوم فى مستأنف الأيام يلقى علينا ضوءا من هذه المعرفة ، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع فى دراسته ينير لنا بعض السر

في ذلك ، ففي هذه الدراسة معرفة شيء من أحوالنا في الحياة الأخرى بعد هذه الحياة .
وسياتى تفصيل لهذا القصص في سورة الجن .

الإيضاح

(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين) أى واذكر أيها الرسول لقومك موبخاتهم على كفرهم بما آمنتم به الجن ، لعلمهم يتنبهون لجهلهم ، ويرعون عن غيهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلّموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ، ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ، ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه .

وذكر الوقت ذكرته لما فيه من الأحداث التى يراد إخبار السامع بها ، لما لها من خطر جليل وشأن عظيم ، فيراد علمه بها ليكون لها فى نفسه الأثر الذى يقصد منها من ترغيب أو ترهيب ، ومسرة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود عن آذن النبى صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ، قال آذنته بهم الشجرة .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ، قال ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل . استظير . ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ،

فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يحيى من قبل حراء فأخبرناه فقال : إنه أتاني داعي الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم .
وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية . ثم فصل ما قالوه لهم في إنذارهم .

(قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصداقاً لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم) أى قالوا لهم يا قومنا من الجن : إنا سمعنا كتاباً أنزله الله من بعد توراة موسى ، يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق ، وإلى ما فيه الله رضا ، وإلى الطريق الذي لا عوج فيه .
وخصوا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين . وقال عطاء لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

(يا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويمحرم من عذاب أليم) أى يا قومنا أجيئوا رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ما يدعوك إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — يغفر لكم بعض ذنوبكم ويستترها لكم ولا يفضحكم بها في الآخرة بعقوبته إياكم عليها ، وينقذكم من عذاب موجه ، إذا أنتم تبتغون من ذنوبكم وأنتم إلى ربكم ، وأخلصتم له العبادة .
وفي الآية إيماء إلى أن حكم الجن حكم الإنس في الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهي .

ثم حذروا قومهم وتوعدهم وأوجبوا إيجابهم داعي الله بطريق التهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب فقالوا :

(ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء)
أى ومن لا يحب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى ما دعا إليه من التوحيد

والعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسبقه هربا إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعيه ، ولا يجد له نصراء ينصرونه ويدفعون عنه عذابه .

ثم بين أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية في الضلال ، والبعد عن الصراط السوي فقال : (أولئك في ضلال بعيد) أى وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون في ضلال بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضح وأعلامه منصوبة ، والوصول إليه ميسور ، فمن جافه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَخْلُقْهُنَّ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّبَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا ،
قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو
الْعِزِّ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ
لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

لم يعي : أى لم يعجز ، قال الكسائى : يقال أعيت من التعب ، وعيت من انقطاع الحيلة والعجز ، قال عبيد بن الأبرص :

عَيَّوْا بِأَمْرِهِمْ كَمَا عَيَّتْ بِيضَتِهَا الْحَامَةُ

أولو العزم : أى ذوو الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوحٌ والخليل المجدُّ وموسى وعيسى والحبيب محمدٌ

بلاغ : أى كفاية فى الموعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وأبطل قول عبدة الأصنام ، ثم ثنى بإثبات النبوة وذكر شبهاتهم فى الطعن فيها وأجاب عنها — أردف ذلك بإثبات البعث وأقام الدلائل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، ثم أعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعد استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لاحتالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيستقصرون مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا ، ثم ختم السورة بأن فى هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ، ولم ينقد لأمره ونهيه :

الإيضاح

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى؟) أى أو لم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلامهم ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شيء ، ولم يعى فى إنشائهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلامهم فى قبورهم أحياء كهيئتهم قبل وفاتهم ؟
ونحو الآية قوله عز وجل : « تَخْلُقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

والخلاصة — إن من قال للسموات والأرض كونى فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة ، طائفة خائفة وجلّة — أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ .

ثم أجاب عن ذلك مقررّاً للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال:
(بلى إنه على كل شيء قدير) أى بلى إن الذى خلق ذلك — ذو قدرة على
كل شيء أراد خلقه ، ولا يعجزه شيء أراد فعله .

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال ؛ لوضوح الجواب إذ لا يختلف فيه أحد ،
ولا يعارض فيه ذولب .

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأهوال فقال:
(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا) أى ويوم
يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث وشواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة ، وعقابه
إياهم على أعمالهم السيئة — على نار جهنم يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ:
أليس هذا العذاب الذى تعدّونونه اليوم وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا — بلخلق
الذى لاشك فيه؟ قالوا من فورهم: بلى وربنا إنه لحق .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى قال أمراهم على طريق الإهانة
والتوبيخ: ذوقوا عذاب النار الآن جزاء جحودكم به فى الدنيا وإبائكم الاعتراف به
إذا دُعيتم للتصديق به .

ولما قرر التوحيد والنبوة والبعث وأجاب عن شبهاتهم — أردف ذلك بما يجرى
مجرى العظة والنصيحة لنبية ، لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوغرون صدره فقال:
(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أى فاصبر أيها الرسول على ما أصابك
فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولوا العزم
من الرسل على القيام بأمر الله والالتناء إلى طاعته .

والخلاصة — اصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك
الرسل من قبلك .

وعن عائشة قالت: ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائماً ثم طوى ، ثم ظلّ
صائماً ثم طوى ثم ظلّ صائماً قال يا عائشة: « إن الدنيا لاتنبغى لحمد ولا لآل محمد ،

يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم عن الرهيل إلا بالصبر على مكروهاها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض مني إلا أن يكلفني ما كلفهم فقال : « اصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله .
أخرجه ابن أبي حاتم والدليلي .

ولما أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل، نهاء عن العجلة وهي أخس الرذائل فقال :
(ولا تستعجل لهم) أى لاتعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لا محالة .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّفْسَةِ وَمَهْلِكُمْ قَلِيلًا »
وقوله : « فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْلُكُمُ رُؤُودًا » .
ثم أخبر بأن العذاب إذا نزل بالكافرين استقصروا مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال :

(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم - لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار - لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا في الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار .

ونحو الآية قوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ » وقوله : « كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا » .

(بلاغ) أى هذا القرآن بلاغ لهم وكفاية إن فكروا واعتبروا ، ودليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ » وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ » .

ثم أوعد وأنذر فقال :

(فويل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى وما يهلك بالعباد إذا نزل إلا الخارجون عن طاعة الله المخالفون لأمره ونهييه ؛ إذ لا يعذب إلا من يستحق العذاب .
قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية في الرجاء ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع في سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو : « اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنىمة من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لا تدع لي ذنباً إلا غفرته ولا همّاً إلا فرجته ، ولا ديناً إلا قضيتته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين » .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

- (١) إقامة الأدلة على التوحيد والرد على عبدة الأصنام والأوثان .
- (٢) المعارضات التي ابتدعها المشركون للنسوة والإجابة عنها وبيان فسادها .
- (٣) ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحدوا الله وصدقوا أنبياءه وبيان أن جزاءهم الجنة .

- (٤) ذكر وصايا المؤمنين من إكرام الوالدين وعمل ما يرضى الله .
- (٥) بيان حال من انهمكوا في الدنيا ولذاتها .
- (٦) قصص عاد وفيه بيان أن صرف النعم في غير وجهها يورث الهلاك .
- (٧) استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغهم قومهم ما سمعوه .
- (٨) عظة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته .
- (٩) بيان أن القرآن فيه البلاغ والسكفاية في الإنذار .
- (١٠) من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من خرج من طاعته ولم يعمل بأمره ونهييه .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورة القتال

هى مدنية إلا آية ١٣ فقد نزلت فى الطريق أثناء الهجرة .

وعدة آيها ثمان وثلاثون آية . نزلت بعد الحديد .

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، حتى لو أسقطت البسمة من البين لكان الكلام متصلا بسابقه لانفاذ فيه ، ولكن بعضه آخذاً بمحجز بعض .

أخرج الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأها فى صلاة المغرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) .

شرح المفردات

صدّوا عن سبيل الله : أى صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعوا أنفسهم عن الدخول فيه ، أضلّ أعمالهم : أى أبطلها ، وهو الحق

من ربهم : أى وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه ، بألهم : أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الخال التى يكثر بها ، ولذلك يقال ما باليت به : أى ما اكثرت به ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذى بال » الحديث . يضرب الله للناس أمثالهم : أى يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى مقامهم .

المعنى الجملى

قسم الله الناس فريقين : أهل الكفر الذين صدوا الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء يبطل أعمالهم سواء كانت حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو سيئة كالكيء لرسول الله والصدّة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يمحو أثرها ، وهكذا كل من قاوم عملاً شريعياً فإن مآله الخذلان .

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم ، وأولئك يغفر الله لهم سيئات أعمالهم ويوفقههم فى الدين والدنيا ، كما أضع أعمال الكافرين ولم يُثب عليها .

ثم علل ماسلف بأن أعمال الفريقين جرت على ماسنه الله فى الخليفة : بأن الحق منصور ، وأن الباطل مخذول سواء كان فى أمور الدين أم فى أمور الدنيا ، فالصناعات المحكّة إنما يقبل الناس عليها ويؤثرونها ، لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق ، وهكذا الشأن فى الزروع والمصنوعات المتقنة الجيدة ، والسياسات الحكيمة .

فالصناعات المردولة والسلع المزجاة لن يكون حظها إلا الكساد والبوار ، لأن الباطل لا يثبت له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، والعلم الصحيح والدين الصحيح والصناعات الجيدة والآراء الصادقة نتائجها السعادة ، وضدها عاقبتها الشقاء والبوار .

وقضارى ذلك — إن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وعلى قوانين

ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا ،
فرجال الجد والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون
في كل شيء محبوبون منصورون .

الإيضاح

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أى الذين جحدوا
توحيد الله وعبدوا غيره وصدوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته وتصديق نبية
عما أراد — جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى ، لأنها عملت في سبيل الشيطان
لا في سبيل الرحمن ، وما عمل للشيطان فآله الخسران .

فأعملوه في الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام وفك
الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام وإجارة المستجير وقرى الأضياف
ونحو ذلك — حكم الله ببطالانه ، فلا يرون له في الآخرة ثوابا ، ويجزون به في الدنيا
من فضله تعالى .

ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .
قال ابن عباس : نزلت الآية في المطعمين بيدى ، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ،
والخارث بن هشام ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأبى ، وأمية ابنا خلف ، ومثبه ونبيه
ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، وزنعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ،
والحرث بن عامر بن نوفل .

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بشواب أهل الإيمان فقال :
(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم
كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) أى والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته واتبعوا
أمره ونهيه وصدقوا بالكتاب الذى نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم — محمداً الله

بفعلهم سيء ما عملوا فلم يؤاخذهم به ، وأصلح شأنهم في الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم في الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جناته . قال ابن عباس نزلت الآية في الأنصار .

ثم بين سبب الإضلال ، وإصلاح البال فقال :

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أى وإنما أبططنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق بما وسوس إليهم به الشيطان ، ولأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذى جاءهم من ربهم ، فأنار الله بصائرهم وهداهم إلى سبل الرشاد .

(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أى كما بينت لكم فعلى فريقى الكفار والمؤمنين . كذلك تمثل للناس الأمثال ونشبه لهم الأشباه ، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها .

والخلاصة — إنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، والإضلال مثلاً لخبيثتهم ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم مثلاً لفوزهم ، وهكذا شأن القرآن يوضح الأمور التى فيها عظة وذكرة بضرب الأمثال كما ضرب المثل بالنخل والحنظل فى سورة أخرى .

فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحَسَبْتُمْهُمْ
فَشُدُّوا الوثَاقَ ، فَأَمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءُ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ،
ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَوَصَّرْنَاهُمْ ، وَلَكِنْ لَّيَبْتَلُو بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ ،
وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ

بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا
 اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَصْلٌ
 أَعْمَالُهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩)

شرح المفردات

لقيم من اللقاء : وهو الحرب ، فضرب الرقاب : أى فالقتل ، وعبر به عنه تصويراً
 له بأشنع صورة وهو حَزَّ العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه
 وجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشعة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة
 ما ليس فى لفظ القتل ، وأختصموم : أى أكثرتم القتل فيهم ، فشدوا الوثاق : أى
 فأسروهم ، والوثاق : (بالفتح والكسر) : ما يوثق به ، مثلاً : أى إطلاقاً من الأسر
 بالمجان ، فداء : أى إطلاقاً فى مقابلة مال أو غيره ، والأوزار فى الأصل : الأحوال
 ويراد بها آلات الحرب وأثقالها من السلاح والكراع ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحاً طوالاً وخيلاً ذكوراً

ومن نسج داودَ موضونةً تساق مع الحى عيراً فميراً

انتصر : أى انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ليلو :
 أى ليختبر ، يضل : أى يضيع ، بالهم : أى شأنهم وحالهم ، عرّفها : أى بينها وأعلمها ،
 إن تنصروا الله : أى تنصروا دينه ، يثبت أقدامكم : أى يوفقكم للدوام على طاعته ،
 فتعسا لهم ، من قولهم : تمس (بفتح العين) الرجل تعسا : أى سقط على وجهه ، وضده
 انتعش : أى قام من سقوطه ، ويقال تصا ونكسا (بضم النون) : أى سقطوا على
 الوجه وسقطوا على الرأس ، أخبط أعمالهم : أى أبطلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الناس فريقان : أحدهما متبع للباطل ، وهو حزب الشيطان ، وثانيهما متبع للحق ، وهو حزب الرحمن - ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول حتى ينفى إلى أمر الله ، ويرجع عن غيّه ، ويخضع لشوكته .

الإيضاح

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَنتَحَسَمُوا فَشَدُّوا الوثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا) أى فإذا واجهتم المشركين فى القتال فأحصدوهم حصداً بالسيوف حتى إذا غلبتوهم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشددوهم فى الوثاق ، كى لا يقاتلوكم أو يهربوا منكم ، ثم أتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المعارك - بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم منأتم عليهم فأطلقتموهم بلا عوض من مال أو غيره ، وإن شئتم فاديتوهم بمال تأخذونه منهم وتشايطروهم عليه - حتى لا يكون حرب مع المشركين ولا قتال ، بزوال شوكتهم .

ونحو الآية قوله تعالى « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسارى (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) وكان عليه عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده . روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلاً قبل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ثُمَامَةُ ابن أُنَالٍ ، فربطوه فى سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما عندك يا ثُمَامَةُ ؟ فقال : عندى خير ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تُنعم تنعم على شاكِر ، وإن كنت تريد المال فسل ماشئت ، حتى كان القد ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ما عندك يا ثُمَامَةُ ؟ قال عندى ما قلت لك ، قال : أطلقوا

ثمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ، قال لا ولكن أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من عَقِيل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، ففداه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف .

واعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أخرى ، فالأثم في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشاب المراهق الذي لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون في أذاه ، وينكفون به ، وهذه هي حال الأمم اليوم .

ألا إن الحرب تقوى الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو ، وتوقظ الشعور ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، قال أرسطو للإسكندر : إن الراحة مضرّة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقيّ أمة فاجعلها تخوض الحروب ؛ فذلك يفتح لها باب السعادة ؛ والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرّضة للزوال .

فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى مَنْ قبلها ، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء وشفاء الغليل وجمع الرجال والسلاح والكراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها وانسراح صدورهم بظهور أم أخرى تكافح معها في ميدان الحياة ، ويكون كل فرد في الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه ، وهذا الكدح والجِد في العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذة وفرحاً أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال .

إن الأمم لا تزال في الطّور الأول ، فهي تسعى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها ، وسيأتي حين تسعى فيه لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ويكون الناس جميعا بعضهم لبعض كالآباء والأبناء .

وإلى حال الكمال أشار سبحانه بقوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) وإلى حال النقص أشار سبحانه بقوله :

(ذلك) أى هذا الذى أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم فى حرب وشدة وثاقهم فى أسرهم والمنّ والفداء حتى تضع الحرب أوزارها — هو الحق الذى أمركم به ربكم ، وهو السنة التى جرى عليها لإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم مادامت فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها العقلى والخلقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لا يكون هناك حاجة إليها ، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفرادها جميعا ، وشقاؤه بشقاؤهم .

ثم بين أن هذه هى السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ، ولو شاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال :

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) أى ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفأكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلو بعضكم ببعض فيختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء ، ويتعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق .

وفى الجهاد تقوية لأبدانكم ، ورقّ لعقولكم ، ونفاذ لكلماتكم ، وجمع لشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها ، وهكذا ترتقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتم المدنية ، ويرق النوع الإنسانى ، ولا يعيش فى هذا الوسط الصاخب إلا الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك ، وهذه هى سنة الله فى الكون .

ثم ذكر جزاء المجاهدين في سبيل الله فقال :

(والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم) أى والذين جاهدوا أعداء الله في دين الله وفي نصرته ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التى عملوها في الدنيا ضائعة سدى ؛ كما أذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الجدوى .

روى أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعطى الشهيد ست خصال . عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أخذ ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعلُ هُبَل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولوا لاسواء . قتلانا أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلاكم في النار يعذبون ، فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم .

ثم فسر ماسلف بقوله :

(سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم) أى سيوفقهم الله للعمل بما يرضيه ويحب ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم في العقبى ، ويتقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقراً في الجنة لا يضل في طلبه .

لاجرم أن لكل امرئ في الحياة عملاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعدها ، كما يحصل كل من نال إجازة في علم أو صناعة على عمل يشاكل إجازته في قوانين الدولة .

والناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر المالح وأنواع الطير في جو السماء لكل منها جو لا يتعداه ، هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها ؛ كما أن السمك منه ما هو قريب من سطح الماء ، ومنه ما يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار أو آلافها ، وإلى ذلك يشير قوله : « وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : يُهْدَى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون ؛ كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها .

وفي الخبر : « لأحدكم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا » .

ثم وعدهم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصرُوا دينه بقوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على عدوكم ، ويثبت أقدامكم في القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة المشركين هي السفلى :

وبعد أن ذكر جزاء المجاهدين أعقبه بجزاء الكافرين فقال :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ) أى والذين كفروا بالله وجحدوا توحيدَه نغراً لهم وشقاء ، وأبطل الله أعمالهم وجعلها على غير هدى واستقامة ، لأنها عملت للشيطان ، لا طاعة للرحمن .

ثم بين سبب ذلك الإضلال فقال :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ) أى ذلك الذى فعلنا بهم من التعس وإضلال الأعمال ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذى أنزلناه على نبينا محمد

صلى الله عليه وسلم فكذبوا به وقالوا هو سحر مبين ، فمن ثم أحبط أعمالهم التي عملوها في الدنيا وأصلحهم سعيرا .
وقصارى ذلك — إن كل ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
دَبَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْتَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلُكُنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)
أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدَنِي مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ
أَهْوَاءَهُمْ (١٤) .

المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبة أعمالهم ، وأن النار مَثْوًى لهم —
أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارها ، لما للمشاهدات
الحسية من آثار في النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول ، إذا تدبروها واعتبروا بها .

الإيضاح

(أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) أى أَلَمْ
يسر هؤلاء المكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم ، للنكرون ما أنزلنا عليه من

الكتاب — في الأرض فيروا نعمة الله التي أحلها بالأمم الغابرة ، والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن يفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم .

ثم ذكر ما فعله بهم فقال :

(دعّر الله عليهم) يقال دعّره: أهلكه ، ودعّره عليه: أهلك ما يختص به ، أى أهلك ما يختص بهم من الأهل والولد والمال ، أفلا يعتبر هؤلاء بما حل بمن قبلهم فيعلموا أن ما حاق بهم من سوء المنقلب — لا بد أن يحل بهم مثله على حسب ما وضعه سبحانه من السنن في الأمم المكذبة لرسولها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا ما عناء سبحانه بقوله :

(وللكافرين أمثالها) أى وللهؤلاء الكافرين السائرين سيرتهم أمثال هذه العاقبة التي ترون آثارها .

ثم بين السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بهم فقال :

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) أى هذا الذي فعله بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم بسبب أن الله ولي من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب .

ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته في قوله : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ » لأن المراد به هناك المالك لأموالهم ، المتصرف في شئونهم .

قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » وقد تقدم هذا برواية أخرى .

وبعد أن بين حالى المؤمنين والكافرين فى الدنيا، بين حالهم فى الآخرة فقال :
 (إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار)
 أى إن الله ذا الجلال والإكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا به وصدقوا رسوله وعملوا
 صالح الأعمال — بسنتين تجري من تحت قصورها الأنهار كرامة لكم على إيمانهم
 بالله ورسوله واليوم الآخر .

(والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) أى والذين جحدوا
 توحيد الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها
 وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ،
 ولا معتبرين بما نصب الله خلقه فى الآفاق والأنفس من الحجج المؤدية إلى معرفة
 توحيده وصدق رسوله ، فثلهم مثل البهائم تأكل فى معالقتها ومسارحها ، وهى
 غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم
 ساهون لاهون عن عذاب السعير .

(والنار مثوى لهم) أى ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد مماتهم .
 والخلاصة --- إن المؤمنين عرفوا أن نعم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ،
 وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم ، وإن الكافرين
 غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدمن كالبهائم حتى ساقهم الخلدان ، إلى مقرهم من درك
 النيران ، أعاذنا الله منها .

وبعد أن ضرب لهم المثل بقوله : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » ولم يعتبروا به
 وذكر لهم ما تقدم من الأدلة على وحدانيته — ضرب المثل لنبية تسلية له عما يلاقى
 من غت قومه وجحودهم فقال :

(وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر
 لهم) أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، وأعدّ عديدا من

أهل مكة الذين أخرجوك — أهلكناهم بأنواع العذاب ولم يجدوا ناصرا ولا معيناً يدفع عنهم بأسنا وعذابنا ، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات ، فإله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم ينبؤوا إلى ربهم ، ويشوبوا إلى رشدهم .

وغير خاف ما في هذا من التهديد الشديد ، والوعيد الأكيد لأهل مكة .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إليّ ، وأنت أحب بلاد الله إليّ . ولولا أن أهلك أخرجوني لم أخرج منك ، وأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدحول (ثارات) الجاهلية ، فأنزل الله سبحانه على نبيه (وكأين من قرية) » الآية .

ثم ذكر الفارق بين حالى المؤمنين والكافرين والسبب فى كون هؤلاء فى أعلى عليين وأولئك فى أسفل سافلين ، فقال :

(أفمن كان على بينة من ربه كنز له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟) أى أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له رباً يحازيه على طاعته وإياه بالجنة ، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار — كن حسن له الشيطان قبيح عمله ، وأراه إياه جميلاً فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائب ، واتبع هواه وجمحت به شهواته فطفق يندو فى المعاصى ، ويحُبّ فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أوزاجر ؟

والخلاصة — أيستوى الفريقان . من كان ثابتاً على حجة بينة من عند ربه وهى كتابه الذى أنزله على رسوله وسائر الحجج التى أقامها فى الآفاق والأنفس . ومن زين له الشيطان سيئ أعماله من الشرك وسائر المعاصى كما أخرجك من قريتك ،

واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد ما يدعيه ، وتطمئن إليها نفسه في الدفاع عما يدين به ؟ كلاً هالاً يستويان .

ونحو الآية قوله : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

شرح المفردات

مثل الجنة : أى صفتها ، آسن : أى متغير الطعم والريح الطول مكثه ، وفعله آسن (بالفتح من بابى ضرب ونصر ، وبالكسر من باب علم) لذة تأنيث لذة ، وهو اللذيذ ، مصفى : أى لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل ولم يمت فيه بعض نخله كعسل الدنيا ، حمياً : أى حاراً ، والأمعاء : واحدها معى (بالفتح والكسر) وهو ما فى البطن من الحوايا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها

الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب في النار وشرب الماء الحار الذي يقطع الأمعاء .

الإيضاح

(مثل الجنة التي وعد المتقون) أى وصف الجنة التي وعدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ما استسمونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

(١) (فيها أنهار من ماء غير آسن) أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح لطول مكثها وركودها .

(٢) (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض ولم يصر قارصا ولا حازرا كالبان الدنيا ، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم .

(٣) (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى وفيها أنهار من خمر للذبة لهم ، إذ لم تدنسها الأرجل ، ولم ترنقها (تكدرها) الأيدي كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخار كخمر الدنيا ، فلا يتكرها الشاربون .

(٤) (وأنهار من عسل مصفى) أى وفيها أنهار من عسل قد صفى من القذى وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها .

وبدئ بالماء لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى الطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرى والشبع تشوقت النفس لما يستلذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والطعوم .

أخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن معاوية ابن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » .

(٥) (ولهم فيها من كل الثمرات) أى ولهم فيها أنواع من الثمار المختلفة الطعوم والروائح والأشكال .

(٦) (ومغفرة من ربهم) فهو يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل ، ويتجاوز عن هفواتهم التى اقترفوها فى الدنيا .

وبعد أن ذكر ما وعد به المتقين من النعيم — ذكر ما أوعده الكافرين من العذاب الأليم فقال :

(١) (كن هو خالد فى النار) أى أم من هو خالد فى الجنة على حسب ما جرى به الوعد كن هو خالد فى النار كما نطق به الكتاب فى قوله : « وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ » أى ليس هؤلاء كأولئك فليس من هو فى الدرجات العلى ، كن هو فى الدرجات السفلى .

(٢) (وسقوا ماء حميًا مقطوع أمعاءهم) أى وسقوا ماء حارًا لا يستساغ ، وإذا دنوا منه شوى وجوههم وقطع أمعاءهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ
إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ؟ (١٨) فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ
وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩) .

شرح المفردات

أنفًا : أى قبيل هذا الوقت ، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، وأصل ذلك الأنف بمعنى الجارحة ثم سمي به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه ، آتاهم : أى ألهمهم ، بغتة : أى فجأة ، والأشراط : العلامات ، واحدها شرط (بالسكون والفتح) ومنه أشرط الساعة ، قال أبو الأسود الدؤلى :

فإن كنت قد أزمعت بالصّرْم بيننا فقد جعلت أشرط أوله تبدو
فأنى لهم : أى كيف لهم ، ذكراهم : أى تذكرهم ، متقلبكم : أى تقلبكم
لأشغالكم فى الدنيا ، ومثواكم : أى ماوأكم فى الجنة أو النار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مقبليهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاونا واستمراء به حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للواعين من الصحابة : ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده؟ — وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، ومن ثم تشاغلو عن سماع كلامه ، وأقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا ، وألهمهم ربهم مايتقون به النار ، ثم عطف أولئك المكذبين وذكر أن عليهم أن يراعوا قبل أن تجيء الساعة التى بدت علاماتها بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم والذكرى لا تنفع حينئذ ، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله هو العليم بمصرفكم فى الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو النار فى الآخرة .

الإيضاح

(ومنها من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً؟) أى ومن الناس منافقون يستمعون فلا يعون ماتقول ، ولا يفهمون ماتتلو عليهم من كتاب ربك ، تغافلوا عما تدعو إليه من الإيمان حتى إذا خرجوا من عندك قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتاب الله: ماذا قال محمد قبل أن تفارق مجلسه؟ وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول ، وأنه مما لا ينبغي أن يؤتبه به ، أو يلقى لمثله سمع .

روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس : وقد سئلت فيمن سئل .

ثم بين سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال :

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا شهواتهم وما دعتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

ثم ذكر سبحانه أصداد هؤلاء بقوله :

(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) أى والذين اهتدوا بالإيمان واستعان القرآن زادهم الله بصيرة وعلماً وشرح صدورهم ، وألهمهم رشدهم ، وأعانهم على تقواه .

ثم بين أنهم فى غفلة عن النظر والتأمل فى عاقبة أمرهم فقال :

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) أى إنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوته رسوله وأن البعث حق وأن الله يهلك

من كذب رسله ويحل بهم الوبال والنكال كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التي أهلها الله بالكذب رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يفدهم كل ذلك شيئاً ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة إذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

والخلاصة — إن البراهين قد نصبت ، والأدلة قد وُضعت على وجوب الإيمان بالله ، وصدق رسوله ، والبعث والنشور ، وهم لم يؤمنوا — فلا يتوقع منهم إيمان بعدئذ إلا حين مجيء الساعة بغتة ، وهما هي ذى أشرطها قد ظهرت ، ومقدماتها قد بدأت ، ولم يأبهوا بها ، ولا فكروا في أمرها ، والمراد بيان أنهم بلغوا الغاية في العناد ، والنهاية في الاستكبار .

ثم أظهر خطأهم ، وحكم بأن رأيهم آفئ في تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة ، ببيان أن التذكر لا يجدى نفعا حينئذ فقال :

(فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم؟) أى فمن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؟ فإن الذكرى لا تنفع حينئذ ، ولا تقبل التوبة ، ولا ينفع الإيمان .
ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » .

وبعد أن أبان أن الذكرى لا تنفع إذا انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل — أمر رسوله بالثبات على ما هو عليه ، والاستغفار ، لأتباعه فقال :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك والمؤمنين والمؤمنات) أى إذا علمت سعادة المؤمنين وعذاب الكافرين ، فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة ، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك (وذنوب الأنبياء أن يتركوا ما هو الأول بمنصبتهم الجليل) وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم

اغفرلى خطيئتي وجهلى وإسرافي فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفرلى هزلى وجدي ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك غندى .

وثبت أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » .

وجاء أيضا أنه قال « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منها ، فإن إبليس قال : إنما أهلكتم الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتم بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وفى الأثر المروى « قال إبليس وعزتك وجلالك لأزال أغويهم مادامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل « وعزقى وجلالى لأزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

ثم رغبتهم سبحانه فى امتثال ما يأمرهم به ، ورهبهم عما ينههم عنه فقال : (والله يعلم متقلبكم ومنواكم) أى والله يعلم تصرفكم فى نهركم ومستقركم فى ليلىكم ، فاتقوا الله واستغفروه ، فهو جدير بأن يتقى ويخشى ، وأن يستغفر ويسترحم .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ، فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) .

شرح المفردات

لولا: كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة في أمر الجهاد ، محكمة: أى بيّنة واضحة لاحتمال فيها لشيء آخر، مرض: أى ضعف ونفاق ، نظر المغشى عليه من الموت : أى كما ينظر المصروع الذى لا يطرف بصره ، جنباً منهم وهلمأ ، أولى لهم : أى فويل لهم ، وهو من الولّى بمعنى القرب ، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه ويقرب منهم ، عزم الأمر: أى جدّ أولو الأمر ، عسى كلمة تدل على توقع حصول ما بعدها ، توليتم: أى توليتم أمور الناس . وتأمرتم عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين حين استماع آيات التوحيد والحشر والبعث وغيرها من الأمور التى أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله فيما سلف « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » وقوله « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » — أردف هذا فذكر حالهم فى الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها ، فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا يقولون : هلا أمرنا بشيء من ذلك ، لينالوا ما يقر بهم من ربههم ويحصلوا على رضوانه ، والزلفى إليه ، وأن المنافقين كانوا إذا نزل شيء من تلك التكاليف شق عليهم ونظروا نظرة المصروع الذى يشخص بصره خوفاً وهلمأ . ثم ذكر نتيجة لما سلف ، وفذاكمة

لما تقدم ، فأعقب هذا بأن الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصحهم فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم فلا يسرون على الصراط المستقيم ، أما المؤمنون فقد رضى الله عنهم وأرضاهم ، ونالوا محبته ، ودخلوا جنته ، فضلا منه ورحمة ، والله ذو الفضل العظيم .

الإيضاح

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت) أى إن المؤمنين المحلصين فى إيمانهم يشتاقون للوحى ، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه ويقولون : هلا أنزلت سورة تأمرنا به ، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة فى الأمر به فرحوا بها ، وشق ذلك على المنافقين ، وشخصت أبصارهم هلعاً وجبناً من لقاء العدو ونظروا مغتاضين بتحديد وتحديد كمن يشخص بصره حين الموت .

ونحو الآية قوله « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ » .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(فأولى لهم) أى فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين ، إذ حياتهم ليست فى طاعة الله ، فالموت خير منها ، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك ، فكأنه قيل : أهلكهم الله هلاكاً أقرب لهم من كل شر وهلاك ، فهو نحو قولهم فى الدعاء « بُعْداً له وسحقاً » .

قال الأصمى معناه : قارب ما يهلكه أى نزل به ، وأنشد :

فَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا وَأُولَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ
أى قارب أن يزيد .

(طاعة وقول معروف) أى طاعة الله وقول معروف أمثل لهم وأحسن بما هم فيه من الملح والجزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل وظل زائل والآخرة خير لمن اتقى .

(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أى فإذا حضر القتال كرهوه وتخلفوا عنه خوفاً وقرآناً ، ولو صدقوا فى إيمانهم واتباعهم للرسول ، وأخلصوا النية فى القتال لكان خيرا لهم عند ربهم ، إذ ينالون الثواب والزلفى عند ربهم ويعطيهم ما تقرّ به أعينهم ويدخلهم جنات النعيم .

ثم خاطب أولئك المنافقين خطاب توبيخ وتأنيب فقال :

(فهل عسىتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) أى لعلمكم لما عهد فيكم من الحرص على الدنيا وزخرفها « إذ قد أمرتم بالجهاد الذى هو الوسيلة إلى الثواب فسكرتهموه ، وظهر عليكم مآظهر من الخوف والهلع والتشبت بالبقاء فى هذه الحياة والتكالب على زينتها » إن أتم توليتم أمور الناس وصرتهم عليهم أمراء أن تفسدوا فى الأرض بالبغى وسفك الدماء ، وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية من إغارة بعضكم على بعض ونهب الأموال وسفك الدماء .

والخلاصة — إنه لا عجب بعد أن صدر منكم ما صدر من كراهة الدفاع عن حوزة الإسلام — أن تعيدوا أحوال الجاهلية جَزَعَةً إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم .
وبعد أن ذكر هنتاتهم بين سببها فقال :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعشى أبصارهم) أى فهولاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعشى أبصارهم عن الاستفادة

مما شاهدوا من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ، فلم يكن سماعهم سماع إدراك ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال مَهْ ، قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ؛ أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) الآية . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد ورد أحاديث كثيرة في صلة الرحم .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يُضْرَبُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعَرَفْنَاهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ (٣١) .

شرح المفردات

يتدبرون القرآن : أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يقلعوا عن الوقوع فى الموبقات ، ارتدوا على أديارهم : أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، سؤل لهم : أى سهل لهم وزين ، وأملى لهم : أى مد لهم فى الأمانى والآمال ، يضربون وجوههم وأديارهم : أى يتوفونهم وهم على أهول الأحوال وأفظعها ، والأضغان : واحدها ضغن ، وهو الحقد الشديد ، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد ، قال :

قل لابن هند ما أردت بمنطقي ساء الصديق وشيّد الأضغانا ؟

لأريناكم : أى لعرفناكم ، والسيى : العلامة ، ولحن القول : أسلوبه بآمالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ، ولنبلونكم : أى لنختبرنكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أولئك المنافقين أبعدهم الله عن الخير فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا - بين أن حالهم دائرة بين أمرين : إما أنهم لا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم ، أو أنهم يتدبرون ولكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مقفلة ؛ ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم بين سبب ارتدادهم وهو قولهم لبني قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم وهو ما حكى عنهم فى قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَقُولُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنِ خْرِجُوا لِنَحْرِجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح .

ثم أردف هذا بذكر ما يصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض
أرواحهم بسبب اتباعهم أهواءهم وعمل ما يفضب ربهم ، ومن ثم أحبط أعمالهم ،
وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بلى إنه سيوضح
ذلك لدوى البصائر ، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا ، ولكن لم نفعل
ذلك ، سترنا منا على عبادنا وحملنا للأمور على ظاهر السلامة ، وردنا للسرائر إلى عالمها ،
وإنك لتعرفتهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم بما غامز يضعونها
أثناء حديثهم ، وقد كان يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفهم مراميها
فلا تخفى عليه .

ثم ذكر أنه يتلى عباده بالجهاد وغيره ليعلم الصادق في إيمانه ، الصابر على مشاق
التكاليف من غيره ، ويختبر أعمالهم حسناتها وسيئها فيجازيهم بما قدموا « فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون
مواعظ الله التى وعظ بها فى آى كتابه ، ويتفكرون فى حججه التى بينها فى تنزيله
فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل
فى كتابه من العبر والمواعظ ؟ .

والخلاصة --- إنهم بين أمرين كلاهما شر ، وكلاهما فيه الدمار والمصير إلى النار ،
فإما أنهم يعقلون ولا يتدبرون ، أو أنهم سلبوا العقول فهم لا يعون شيئا .
ولما أخبر بإقفال قلوبهم بين منشأ ذلك فقال :

(إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم
وأملئ لهم) أى إن الذين رجعوا القهقري على أعقابهم كفاراً من بعد ما تبين لهم الهدى

وقصد الدبيل ، فعرفوا واضح الحجج ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله -
الشیطان زين لهم ذلك وخدعهم بالآمال ، وحسن لهم مافی الدنيا من لذة يتمتعون
بها إلى حين ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه التي لا تدخل
تحت الحصر ، ولا يبلغها العدد .

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا فقال :

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم
إسرارهم) أى ذلك الضلال من قبل أنهم مالئوا اليهود من بنى قريظة والنضير
وناصحوهم سرا على المؤمنين كما هو شأن المنافقين في كل زمان ، والله يعلم ما يسرون
وما يخفون وهو مطلع عليهم وعالم بهم .

ولا يخفى مافی ذلك من الوعيد وشديد التهديد .

ونحو الآية قوله : « وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ » .

ثم ذكر أن هذه الخيل إن أجدت في حياتهم فماذا هم فاعلون حين وفاتهم فقال :
(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) أى فكيف
يفعلون إذا جاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأقظعها ، وقد
مثل ذلك بحال يخافونها في الدنيا ، ويحبنون عن القتال من أجلها ، وهو الضرب
على الوجوه والأدبار ، إذ في يوم الوفاة لانصرة لهم ولا مفر ، فكيف يحترزون من
الأذى ، ويبتعدون من العذاب .

ثم بين سبب التوفى على تلك الحال الشنيعة فقال :

(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) أى ذلك
الهلول الذي يروونه من أجل أنهم انهمكوا في المعاصي وزينت لهم الشهوات ، وكرهوا
ما يرضى الله من الإيمان به والعمل على طاعته والإخلاص له في السر والعلن ، فأحبط
مأعملوه من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف ومساعدة البائس الفقير

وإغاثة الملهوف إلى نحو أولئك ، إذ هم فعلوه وهم مشركون فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدثوة بين الناس .

ثم بالغ في توبيخ المنافقين وإظهار خباياهم ، وإعلان نواياهم فقال :
(أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) أى أم يعتقد أولئك المنافقون الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أستارهم ويبرز أحقادهم ، بل سيبرزها للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين فلا تبقى مستورة ، وقد أنزل الله في فضائحهم وما يبيطنون من الأفعال سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة كقوله فيهم : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » وقوله : « قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » .

ثم أكد ما فهم من سالف الكلام وأنه سيظهرها فقال :
(ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم) أى ولو نشاء أيها الرسول لعرفناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا بعلامات هى غالبية عليهم ، ولكنه لم يفعل ذلك في جميع المنافقين لستر على خلقه ، ورداً للسرائر إلى عالمها ، وحرصا على ألا يؤذى ذوى قرباهم من المحلصين .

(ولتعرفنهم في لحن القول) أى ولتعرفنهم فيما يداورونه من القول فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعميض والإشارة ، وإياه عنى القائل في مدح محبوبته فقال :

منطق صائب وتلحن أحيانا نا وخير الحديث ما كان لحنا

يريد أنها تتكلم بشيء وتريد غيره وتعرض في حديثها فتزيله عن جهته ، لفظنتها وذكائها .

وقد كانوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بالفاظ ظاهرها الحسن وهم يعنون بها التبيح . قال الكلبي : فلم يتكلم بعد نزولها عند النبي صلى الله عليه وسلم منافق

إلا عرفه ، وقال أنس : فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه .

وفى الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » .

وروى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه وقللت لسانه .

وقد ثبت فى الحديث تعيين جماعة من المنافقين ، فقد روى أحمد عن عقبة ابن عامر قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن فيكم منافقين فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمي ستة وثلاثين رجلاً ، ثم قال : إن فيكم منافقين فاتقوا الله ، قال فمرّ عمر رضى الله عنه برجل ممن سمي مقتنع قد كان يعرفه ، فقال مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بُعداً لك سائر الدهر » .

ثم وعد سبحانه وأوعد وبشر وأنذر فقال :

(والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بما قدمتم من خير أو شر ، إذ لا يضيع عمل عامل عدلاً منه ورحمة .

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) أى ولنختبرنكم بالأمر بالجهد وسائر التكاليف الشاقة حتى يتميز المجاهد الصابر من غيره ، ويعرف ذو البصيرة فى دينه من ذى الشك والحيرة فيه ، والمؤمن من المنافق ، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم فى إيمانه من الكاذب .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فإنك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْطِ أَعْمَالُهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ
وَأَنْ يَتَرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) .

شرح المفردات

شاقو الرسول: أى عادوه وخالفوه ، وأصله صاروا فى شِقٍّ غير شقه ، فلا تهنوا:
أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف ، وقد وهن الإنسان ووهنه غيره ،
وتدعوا إلى السلم : أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفا وإظهارا للعجز ، الأعلون :
أى الغالبون ، والله معكم : أى ناصركم ، لن يترك أعمالك : أى لن ينقصكموها ؛ من
وترت الرجل : إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو جيم أو سلبت ماله وذهبت به ،
فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الوتر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال
حين وفاتهم — أردف ذلك بذكر حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قريظة
والنضير كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيل الله وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نفعه
فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضرؤا الله شيئا بكفرهم ،
بل يضرؤن أنفسهم وسيحبط الله مكايدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم ذكر

قصص بنى سعد وقد أسلموا وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا ، منّا بذلك عليه ، ففهم عن ذلك وبين لهم أن هذا مما يبطل أعمالهم ، ثم أعقب هذا ببيان أن من كفروا وصدوا عن السبيل القويم ثم ماتوا وهم على هذه الحال فلن يغفر الله لهم ، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذى له صورة الحسنات محبط وأن ذنوبهم غير مغفورة ، وبعدئذ أردف هذا بأن الله خاذلهم فى الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفا أمامهم ، فإن الله ناصركم ولن يضع أعمالكم .

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئا وسيحبط أعمالهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا الناس عن دينه الذى بعث به رسوله ، وخالفوا هذا الرسول وخاربهوا وآذوه من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة ، والبراهين الساطعة أنه مرسل من عند ربه - لن يضروا الله شيئا ، لأن الله بالغ أمره وناصر رسوله ، ومظهره على من عاداه وخالفه ، وسيبطل مكائدهم التى نصبوها ، لإبطال دينه ومشاقة رسوله ، ولا يصلون بها إلى ما كانوا يبغيون له من الغوائل ، وستكون ثمرتها إما قتلهم أو جلاءهم عن أوطانهم .
والمراد بصد الناس عن سبيل الله ، منعهم إياهم عن الإسلام بشتى الوسائل ، وعن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والانضواء تحت لوائه .

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال :
(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى يأيها الذين صدقوا بوحدانية الله وقدرته وسائر صفات كماله ، وصدقوا رسوله فيما جاء على لسانه من الشرائع - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى اتباع أوامرها والالتناء عن نواهيها .

ثم نهام عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالهم فقال :

(ولا تبطلوا أعمالكم) أي لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي قاله الحسن ، وقال الزهري بالكبائر . وقال مقاتل بالذنوب والأذى ، وقال عطاء بالنفاق والشرك ؛ والأولى أن يراد به النهي عن كل سبب من الأسباب التي تكون سببا في إبطال الأعمال كأننا ما كان بلا تخصيص بنوع معين .

وعن أبي العالاية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت هذه الآية ، فخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذ رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا قد هلك حتى نزل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فكففنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها رجونا له .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في الآية : من استطاع منكم ألا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر العاصين على الكفر والصد عن سبيل الله فقال : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) أي إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوه ، ثم ماتوا وهم على كفرهم — فلن يغفر الله سبحانه عما صنعوا ، بل يعاقبهم ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد .

وقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يفلقان على من كان حيا .

ثم ذكر سبحانه أن لاجرمه للكافر في الدنيا والآخرة ، فأمر بقتالهم وأرشد إلى أن النصر حليف المؤمنين فقال :

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين وتجنبوا عن قتالهم ، وتدعوا إلى الصلح والمسألة خوفاً وإظهاراً للعجز ، وأنتم العالون عليهم والله معكم بالنصر لكم عليهم ، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها .

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ
وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُخَفِّكُمْ تَبَخَّلُوا
وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَآؤُنَّ هُوَ لَا تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ
وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

شرح المفردات

كل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر في الحال ولا منفعة في المال ولم يمنعك عن مهام أمورك فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهي ، لأنها مشغلة عن غيرها ، ويقال لما دون ذلك لعب كالعب بالشطرنج والزرّ والحمام ، فيحفكم : أى فيجهدكم بطلبها جميعها ، والإلحاف والإحفاء بلوغ الغاية في كل شيء ؛ يقال أحفاه في المسألة : إذا لم يترك شيئا من الإلحاح ، أضغانكم : أى أحقادكم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بترك المعاصى لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة ، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجد للجهاد ومقاتلة الأعداء نصرة لدينه ، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأعلون ، فلا ينبغي لهم أن يطلبوا المهادنة من العدو خوفاً وجبنا خوفاً على الحياة ولذاتها — أكد هذا المعنى فأبان أنه لا ينبغي لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا، فإنها ظل زائل وعرض غير باق ، وما هى إلا لذات مؤقتة لا تلبث أن تزول ، وهى مشغلة عن صالح الأعمال فلا يليق بكم أن تعصوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم يؤتكم أجوركم وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذى فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة ، دنيوية كانت أو دينية ، وهو علم بأنكم أشح على أموالكم ، فلو طلبها لبخاتم بها وظهرت أحقادكم على طالبها ، والله قد طلب إليكم الإنفاق فى سبيله والقيام بما تحتاج إليه الدعوة ، فإن بختم فضرر ذلك عائد إليكم ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

الإيضاح

(إنما الحياة الدنيا لعب ولهو) يقول سبحانه حاضاً عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب ولهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبهم فى العمل الآخرة فقال :

(وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) أى وإن تؤمنوا

ربكم وتتقوه حق تقائه فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه — يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

ثم بين شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال :

(إن يسألكموها فيحلفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) أى إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها — تبخلوا بها وتمنعوها إياه ضنا منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكموها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حبيكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان للإسلام من حيث محبة المال بالجلبلة والطبيعة ، ومن نزع في حبيبه ظهرت طويته التي كان يسيرها .
واخلاصة — قد علم الله شح الإنسان على المال فلم يطلب منه إلا النزر اليسير في الصدقات ، وبذل المال في المرافق العامة لإصلاح شئون المجتمع الإسلامي كسد الثغور وبناء القناطر والجسور .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(هاتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله) أى هاتم أيها المؤمنون تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه .

(فممنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأتم الفقراء)
أى فممنكم من يبخل عن النفقة في هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائد إلى نفسه ، لأنه ينقصها أجرها من الثواب ، ويبعدها من رضا الله والقرب منه في جنات النعيم ، والله لا حاجة إليه في أموالكم ولا نفقاتكم فهو الغنى عن خلقه ، وخلق فقراء إليه ، وإنما حضكم على النفقة في سبيله لتنالوا بذلك الأجر والثواب .
(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) أى وإن تعرضوا

عن طاعة الله واتباع شرائعه وترتدوا راجعين عنها يهلككم ثم يحيىء بقوم آخرين غيركم يصدقون بها ويعملون بالشرائع التي أنزلها على رسوله ، ويقومون بذلك كله على ما يؤمرون به ، والمراد بهم على ما صح في الحديث أهل فارس .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي والترمذي عن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وَإِنْ تَنْتَوَلَوْا الْحُكْمَ فَقَالُوا يَارَسُولَ اللَّهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ إِنْ تَوَلَّيْنَا اسْتَبَدَلُوا بِنَا ، ثُمَّ لَا يَكُونُونَ أَمْثَلَنَا ؟) فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ، ثم قال هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو أن هذا الدين تعلق بالثريا لتناوله رجال من فارس » .

وقد طعن بعض رواة الحديث فيه وجرحوا بعض رواته ، قال ابن كثير وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم .

قال الكلبي : شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يقولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم بهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ، ونصر دينه بأتباعه المؤمنين ، وجعلهم للعمل بنشره دائبين .

اشتملت هذه السورة السكرية على ثلاثة مقاصد

(١) وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

(٢) جزاء الفريقين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ونار وجنة من قوله : « فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ — إلى قوله : وَاللَّهُ يَسْمُرُ مُتَقَلِّبَكُمْ وَمَتَّوَاكُمْ » .

(٣) الوعد والتهديد للمنافقين المرتدين من قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ » إلى آخر السورة .

سورة الفتح

هي مدنية ، وعدة آياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة الجمعة .
ووجه مناسبتها لما قبلها :

- (١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .
- (٢) إن في كل منهما ذكراً للؤمنين المخلصين والمنافقين والمشركين .
- (٣) إن في السورة الساقفة أمراً بالاستغفار ، وفي هذه ذكر وقوع المغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ
اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا (٣) .

شرح المفردات

أصل الفتح : إزالة الأغلاق ، وفتح البلد : دخله عنوة أو صلحا ، والمراد بالفتح هنا صلح الحديبية (والحديبية بئر) على المشهور ، وهو المروى عن ابن عباس وأنس والشعبي والزهري ، وسمى هذا فتحا ؛ لأنه كان سببا لفتح مكة ، قال الزهري : لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثيرهم سواد الإسلام ، فما مضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها .
والخلاصة — إنه كان من نتائج هذا الصلح الأمور الآتية :

(١) تمّ في هذا الصلح ما يسمونه في العصر الحديث (جسّ النبض) لمعرفة قوة العدو ومقدار كفايته وإلى أي حد هي .

(٢) معرفة صادق الإيمان من المنافقين كما علم ذلك من الخلفين فيما يأتي .

(٣) إن اختلاط المسلمين بالمشرّكين حبب الإسلام إلى قلوب كثير منهم فدخلوا في دين الله أفواجا .

مبيناً : أي بيناً ظاهر الأمر مكشوف الحال .

المعنى الجملي

نزلت هذه السورة الكريمة حين منصرفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّره من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نجر هديه حيث أُخْصِرَ ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ؛ فقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إنكم تمدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية . وروى البخاري « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لايحييك ، قال عمر : فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن ، فما لبثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فحُثّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألت عليه فقال : لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا » .

وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » — إلى قوله فَوْزاً عَظِيماً « مرجعه من الحديبية وهم يخالطهم الحزن والكتابة وقد نحروا الهدى بالحديبية ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها » .

هذا ، ولما كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله وغاية يبتغيها منه — كان للنبوة نهاية مطلوبة في هذه الحياة وثمره تتبع هذه النهاية ، فنهاية أمر النبوة أن تلتم الأمور ويجتمع شملها ، وتكمل نظمها التي تبني عليها الحياة الهنية حتى يعيش العالم في طمأنينة وهدوء ، ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العلمي والعملی بقتال الأعداء وخضد شوكتهم ، ومتى تم هذا وأقصد المستضعفون ودخل الناس في دين الله أفواجا كرها ثم طوعا انتظم أمر النبوة ، وأدى الرسول واجبه واستوجب أن يجني ثمرة أعماله ، وهي :

- (١) مغفرة ما فرط من ذنبه مما يعدّ ذنباً بالنظر إلى مقامه الشريف .
 - (٢) تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها .
 - (٣) الهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة ، وإقامة مراسم الرياسة .
 - (٤) المنمة والعزة ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب وحى الذمار .
- فهذا الفتح كان كفيلاً بهذه الشئون الأربعة ، فكأنه سبحانه يقول لرسوله : لقد بلغت الرسالة ، ونصبت في العمل ، وجاهدت بلسانك وسيفك ، وجمعت الرجال والكرأع والسلاح ، وتلطفت وأغلظت ، وأخلصت في عملك ، وفعلت في وجيز الزمن ما لم ينله مثلك في طويله ، حتى تمّ ما ندبتك له فلتجن ثمار عملك ، ولتقر عيننا بما آل إليه أمرك في الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) أى إنا فتحنا لك فتحاً ظاهراً لا يحتاج فيه شك بذلك الصاحب الذي تم على يديك في الحديبية ، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى

دخل الناس في دين الله أفواجا ، وكان هو السِّلْمُ الذي رَقِيت فيه إلى فتح مكة ،
وتسابق العرب إلى الدخول في الدين زرافات ووحدانا .

(ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر) أى ليغفر لك ربك جميع ما فرط
منك من المفوات مما يصح أن يسمى ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف ، وإن كان
لا يسمى ذنباً بالنظر إلى سواك ، ومن ثم قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .
والمراد غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها ، قاله مجاهد وسفيان الثوري
وابن جرير والواحدي وغيرهم .

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبه قال : « كان النبي صلى الله
عليه وسلم يصلي حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك
وما تأخر ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

قال صاحب الكشف : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة — قلت
لم يجعله علة للمغفرة ، ولكنه جعله علة لاجتماع ماعدد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة
وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة
ونصرناك على عدوك ، لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض الآجل والعاجل اهـ .
(ويتم نعمته عليك) بإعلاء شأن دينك ، وانتشاره في البلاد ، ورفع ذكرك
في الدنيا والآخرة .

(ويهديك صراطاً مستقيماً) أى ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه ،
يستقيم بك إلى رضا ربك .

(وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى وينصرك على من ناوأك من أعدائك نصراً
ذا عز بالغ ، لا يدفعه دافع ، لما يؤيدك به من بأس ، وينيلك من ظفر .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ
 إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
 وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ، عَلَيْهِمْ
 دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

شرح المفردات

أنزل السكينة : أى خلقها وأوجدها ، قال الراغب : إنزال الله تعالى نعمته على
 عبد : إعطاؤه إياها ، إما بإنزال الشيء نفسه كالإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه بالهداية
 إليه كالإنزال الحديد ونحوه . اهـ . والسكينة : الطمأنينة والثبات من السكون ، إيماناً مع
 إيمانهم : أى يقينا مع يقينهم ، جنود السموات والأرض : أى الأسباب السماوية
 والأرضية ، ويكفر عنهم سيئاتهم : أى يغطيها ولا يظهرها ، والسوء : (بالضم والفتح) :
 المساءة ، وظن السوء : أى ظن الأمر السوء فيقولون فى أنفسهم : لا ينصر الله رسوله
 والمؤمنين ، عليهم دائرة السوء : الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت
 عليه ، وكثرت استعمالها فى المكروه ، والسوء : العذاب والهزيمة والشر (وهو بالضم
 والفتح لغتان) وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين
 لا يشخطاهم ، انهم : أى طردهم طرداً نزلوا به إلى الحضيض ، عزيراً : أى يغلب
 ولا يُغلب .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه بأنه سينصر رسله — بين سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات قلب ليزدادوا يقينا إلى يقينهم ، ثم أخبر بأن من سنه أن يسلط بعض عباده على بعض ، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس ، وقد وعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعده عباده الكافرين والمنافقين الذين كانوا يترصون الدوائر بالمؤمنين — بالعذاب الأليم ، وغضب عليهم وطردهم من رحمته .

روى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم « لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » مرجعه من الحديبية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بين لك ماذا يفعل بك ، فإذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيمًا » وأخرجه الشيخان من رواية قتادة .

الإيضاح

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) أى هو الذى أنزل فى قلوب المؤمنين طمأنينة وثبات أقدام عند اللقاء ومقاتلة الأعداء (وهو المسمى فى العصر الحديث الروح المعنوية فى الجيوش) ليزدادوا يقينا فى دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوى الأحلام ، ويزلزل العقائد بصدد الكفار لهم عن المسجد الحرام ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم ، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالا شديدا حتى إن عمر بن الخطاب لم يكن راضيا عن هذا الصلح

وقال : ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ وكان للصديق من القدم الثابتة ورسوخ الإيمان مادل على أنه لا يجارى ولا يبارى .

(ولله جنود السموات والأرض) فهو الذى يدير أمر العالم ويسلط بعض جنده على بعض فيجعل جماعة، يجاهدون لإعلاء كلمة الحق ، ويجعل آخرين يقاتلون في سبيل الشيطان ، ولو شاء لأرسل عليهم جندا من السماء فأباد خضراءهم ، لكنه سبحانه شرع الجهاد والقتال لما في ذلك من مصلحة هو عليم بها وحكمة قد تغيب عنا ، وهذا ما عناه بقوله : (وكان الله عليما حكيما) فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وإنما دبر ذلك ليصرف المؤمنين نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ما كثين فيها أبدا ، وليكفر عنهم سيئات أعمالهم بالחסنات التى يعملونها ، شكرا لربهم على ما أنعم به عليهم ، وكان ذلك ظفرا لهم بما كانوا يرجون ويسعون له ، ونجاة مما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم ، وهذا ينتهى ما يرون من منفعة مجلوبة ، ومضرة مدفوعة .

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال الهم والغم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين ، وبما يشاهدونه من ظهور الإسلام وقهر المخالفين ، وبتسليط النبى صلى الله عليه وسلم عليهم قتلا وأسرا واسترقاقا ، وفى الآخرة بعذاب جهنم .

وهم قد كانوا يظنون أن النبى صلى الله عليه وسلم سيُعْلَب ، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الإسلام ، وبما ظنوه ما حكاه الله بقوله : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

وإنما قدم المنافقين على المشركين ، لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار الجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى الجاهر ويخالط المنافق لظنه إيمانه ،

وكان يفشى سره إليه ، وفي هذا دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً وأحق منهم بما أوعدهم الله به .

والخلاصة — إن الفريقين ظنوا أن الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين . وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنونونه بالمؤمنين من الدوائر وأحداث الزمان فقال :

(عليهم دائرة السوء) أى عليهم تدور الدوائر ، وسيحقيق بهم ما كانوا يترقبونه بالمؤمنين من قتل وسبي وأسر لا يتخطاهم .

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة فقال :

(وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) أى ونالهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمناققات والمشركون والمشركات .

(ولله جنود السموات والأرض) من الملائكة والإنس والجن والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والفرق ونحو ذلك — أنصاراً على أعدائه إن أمرهم بإهلاكهم أهل كوثهم وسارعوا مطيعين لذلك .

وفائدة إعادة هذه الجملة — بيان أن الله جنوداً للرحمة وجنوداً للعذاب ، فذكرهم أولاً ببيان أنزالهم للرحمة ، وأنهم يدخلون الجنة مكرمين معظمين ، وذكرهم ثانياً ببيان أنزال العذاب على الكافرين في نار جهنم كما قال : « عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ » .

روى أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي : أئظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبقى له عدو ، فأين فارس والروم — فيبين سبحانه أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم .

(وكان الله عزيزا حكيمًا) أى وكان الله غالبا فلا يرد بأسه ، حكيمًا فيما
دبره خلقه .

خلاصة ما سلف

إنه قد ترتب على هذا الفتح أمور أربعة للنبي صلى الله عليه وسلم :

- (١) مغفرة الذنوب .
- (٢) اجتماع الملك والنبوة .
- (٣) الهداية إلى الصراط المستقيم .
- (٤) العزة والمنعة .

وهكذا فاز المؤمنون بأمر أربعة :

- (١) الطمأنينة والوقار .
 - (٢) ازدياد الإيمان .
 - (٣) دخول الجنة .
 - (٤) تكفير السيئات .
- وجازى الكفار بأمر أربعة :

- (١) العذاب .
- (٢) الغضب .
- (٣) اللعنة .
- (٤) دخول جهنم .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى
نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

شرح المفردات

شاهداً : أى على أمتك لقوله تعالى : « وَيَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ »
 ومبشراً : أى بالثواب على الطاعة ، ونذيراً : أى بالعذاب على المعصية ، وتعرضوه :
 أى تنصروه ، وتوقروه : أى تعظموه ، بكرة : أى أول النهار ، وأصيلاً : أى آخر
 النهار ، والمراد جميع النهار ، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشيء ويريدوا
 جميعه ؛ كما يقال شرقاً وغرباً لجميع الدنيا ، يبايعونك : أى يوم الحديبية إذ بايعوه على
 الموت فى نصرته والذب عنه كما روى عن سلمة بن الأكوع وغيره ، أو على ألا يفروا
 من قريش كما روى عن ابن عمر وجابر ، إنما يبايعون الله ، لأن المقصود من بيعة
 الرسول وطاعته طاعة الله وامتنال أوامره ، يد الله فوق أيديهم : أى نصرته بإهم أعلى
 وأقوى من نصرتهم إياه ؛ كما يقال اليد لفلان : أى الغلبة والنصرة له ، نكث : أى
 نقض ، يقال أوفى بالعهد ووفى به : إذا أتمه ، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء ،
 وضمها حذف لأنها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضربه .

المعنى الجملى

بعد أن أتم الكلام على ما لكل من النبی صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من
 الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه بما يعمهما معا ، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً
 على أمته ، ومبشراً لها بالثواب ، ومنذراً إياها بالعقاب ، ثم أبان أن فائدة هذا
 الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه غدوة وعشيا ونصرة دينه ، ثم ذكر بيعة
 الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة ، سميت باسم بئر هناك) وأن
 الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه ، وأن من نقض منهم العهد فوبال
 ذلك عائد إليه ولا يضرن إلا نفسه ، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم ،
 والثواب الجزيل .

بيعة الرضوان — بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الحديبية ، فبعثه إلى قريش بمكة لينبأهم عنه ما جاء له ، فعمروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش (واحداهم أجبوش ، وهو الفوج من قبائل شتى) فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه لبيعته ، فقال إني أخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى إياهم وما بمكة عدوى (قبيلته بنو عدى) ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم — عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة ، فلقىه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فجعله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نبرح حتى نتاجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايعه القوم على ألا يفتروا أبدا إلا جدد بن قيس الأنصارى ، فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى المودة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله أن الذى بلغه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح وشئ بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل ويدخل مكة .

روى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال خمس عشرة مائة ، والمشهور الذى رواه غير واحد أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

الإيضاح

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) أى إنا أرسلناك أيها الرسول شاهداً على أمتك بما أجاوبك فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم ، مبشراً لهم بالجنة إن أجاوبك إلى مادعوتهم إليه من الدين القيم ، ونذيراً لهم عذاب الله إن تولوا وأعرضوا عما حثهم به من عبادة فآمنوا بالله ورسوله وانصروا دينه وعظموه وسبحوه في الغدو والعشى .

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) أصل البيعة العقد الذى يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذى التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وقد بايعه جماعة من الصحابة على ألا يفروا ، منهم معقل بن يسار ، أى إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأعداء ، إنما يبايعون الله ببيعتهم إليك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(بذ الله فوق أيديهم) أى نعمة الله عليهم بالهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

(فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض العهد الذى عقده مع النبي صلى الله عليه وسلم فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضرن إلا نفسه .

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) أى ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب فى الآخرة ، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ
لَنَا، يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ، وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)
وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَلِلَّهِ
مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعْقِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعْذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا (١٤).

شرح المفردات

المخلفون : واحد مخلف ، وهو المتروك في المكان خلف الخارجين منه ، يقولون
بالسَّيِّئَةِ ما ليس في قلوبهم : أي إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في القلب
فهو كذب صراح ، والملك : إمساك بقوة وضبط ؛ تقول ملكت الشيء إذا دخلت تحت
ضبطك دخولا تاما ، ومنه لا أملك رأس بعيرى : إذا لم تستطع إمساكه إمساكا تاما ،
والمراد بالضر : ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما ، وبالنفع : ما ينفع من حفظ
المال والأهل ، ينقلب : أي يرجع ، إلى أهلهم : أي عائلتهم وذوي قرابهم ، بورا :
أي هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم ، سعيরা : أي نارا مسعورة موقدة ملتهبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم ولعنهم
وأعد لهم عذاب السعير — أردف ذلك بذكر قبائل من العرب جهينة ومزينة

وَعَفَارٍ وَأَشْجَعِ وَالذَّيْلَ وَأَسْلَمَ — تَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا اسْتَنْفَرَهُمْ
عَامَ الْحَدِيدِيَّةِ حِينَ أَرَادَ السَّيْرَ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا ، وَسَاقَ مَعَهُ الْهَدْيَ لِيَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يَرِيدُ
حَرْبًا ، وَاعْتَلَّوْا بِأَنْ أَمْوَالَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ قَدْ شَغَلَتْهُمْ ، لَكُنْهُمْ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ كَانُوا ضَعُفَ
الْإِيمَانِ حَافَتَيْنِ مِنْ مَقَاتِلَةِ قَرِيشٍ وَثَقِيفٍ وَكِنَانَةَ وَالْقَبَائِلِ الْمَجَاوِرَةِ لِمَكَّةَ وَهُمْ
الْأَحَابِيشُ ، وَقَالُوا : كَيْفَ نَذْهَبُ إِلَى قَوْمٍ قَدْ غَزَوْهُ فِي عُمْرِ دَارِهِ بِالْمَدِينَةِ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ
فَنَقَاتَهُمْ ؟ وَقَالُوا : لَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ وَلَا أَصْحَابُهُ مِنْ هَذَا السَّفَرِ ، فَضَحَّحَهُمُ اللَّهُ فِي هَذِهِ
الْآيَةِ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَعَدَّ لَهُؤُلَاءِ وَأَمْثَلَهُمْ نَارًا مَوْقُودَةً تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِئَةِ ، وَأَعَدَّ لِلْمُؤْمِنِينَ
جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَهُوَ ذُو مَغْفِرَةٍ لِمَنْ أَقْلَعَ مِنْ ذَنْبِهِ ،
وَأَنَابَ إِلَى رَبِّهِ .

الإيضاح

(سَيَقُولُ لَكَ الْخُلَفَاءُ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا) أَيْ
أَيُّهَا الرَّسُولُ سَيَقُولُ لَكَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ صَحْبَتِكَ وَالخُرُوجِ مَعَكَ فِي سَفَرِكَ حِينَ
مَسَرْتَ إِلَى مَكَّةَ مُعْتَمِرًا زَائِرًا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامِ وَعَاقِبَتُهُمْ عَلَى التَّخَلُّفِ : شَغَلْنَا عَنْ
الْخُرُوجِ مَعَكَ مَعَاجِلَةَ أَمْوَالِنَا وَإِصْلَاحَ مَعَاشِنَا وَأَهْلُونَا ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَنَا مَنْ يَقُومُ بِتَنْدِيرِ
شُؤْنِهِمْ وَقَضَاءِ حَاجَتِهِمْ ، فَاطْلُبْ لَنَا الْمَغْفِرَةَ مِنْ رَبِّكَ ، إِذْ لَمْ يَكُنْ تَخَلُّفُنَا عَنْ عَصِيَانِ
لَكَ ، وَلَا مُخَالَفَةَ لِأَمْرِكَ .

فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَذَّبَهُمْ بِقَوْلِهِ :

(يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ) أَيْ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا صَادِقِينَ فِي اعْتِذَارِهِمْ
بِأَنْ الِامْتِنَاعَ كَانَ لِهَذَا السَّبَبِ ، لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا تَخَلَّفُوا اعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَالْمُؤْمِنِينَ يُغْلَبُونَ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ بَعْدُ : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَتَّقِلَبَ الرَّسُولُ
وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم حين اعتذروا بتلك الأباطيل فقال :
 (قل من ذلك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟) أى قل لهم :
 إنكم بعملكم هذا تخرسون من الضر وتتركون أمر الله ورسوله وتعدون طلباً
 للسلامة ، ولكن لو أراد الله بكم ضراً لا ينفعكم قعودكم شيئاً ، أو أراد بكم نفعاً
 فلا راد له ، إذ من ذا الذى يمنع من قضاءه ؟

وهذا رد عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع
 عنهم الضر ويحلب لهم النفع .
 ثم أبان لهم أنه عليم بجميع نواياهم وأن ما أظهروه من العذر هو غير ما يظنوه
 من الشك والنفاق فقال :

(بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهركم من العاذر ،
 بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله :

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك
 في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) أى إن تخلفكم لم يكن لما أبدىتم من
 الأسباب ، بل إنكم اعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأبتهم
 فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزين لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته
 وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين على أعدائهم ، بل سيُغلبون ويُقتلون ،
 وبلغ الأمر بكم أن قاتم : إن محمداً وأصحابه أكلة رأس (قليلو العدد) فأين يذهبون ؟
 وقد صرتم بما قاتم قوماً هللكي لاتصلحون لشيء من الخير ، مستوحشين سخط الله
 وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال :

(ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً) أى ومن لم يصدق
 بما أخبر الله به ويقر بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده ، فإننا أعتدنا له
 سعيراً من النار تستعر عليه في جهنم إذا ورد لها يوم القيامة لكفره بربه .

ثم بين قدرته على ذلك وأنه يفعل ما يشاء لإرادته لحكمه ، ولا معقب لقضائه فقال :

(والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى والله السلطان والتصرف فى السموات والأرض ، فلا يقدر أحد أن يدفعه عما أراد بكم من تعذيب على تفاقكم إن أصررت عليه ، أو منعه من العفو عنكم إن أنتم تبتقم من تفاقكم وكفركم .

وهذا حسم لأطاعهم فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم وهم على هذه الحال . ثم أطمعهم فى مغفرته وعفوه إن تابوا وأنابوا إليه فقال :

(وكان الله غفورا رحيمًا) أى وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عداهم من الكافرين فهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حث هؤلاء المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ، كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْسُدُونَا ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

شرح المفردات

المراد بالمغائِم : مغام خيبر ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة خمس وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية

فتفتحها وغنم أموالا كثيرة خصمهم بها والمراد بتبديل كلام الله الشركة في المغنم دون أن ينصروا دين الله ويعلموا كلمته ، يفقهون : أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فهمهم لأمر الدنيا دون أمور الدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه اعتذارهم عن التخلف فيما سلف بأنه إنما كان لمعالجة معاشهم وصلاح أموالهم ، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته — أعقب ذلك بما يكذبهم في هذه المَعذرة ، فإنهم قد طلبوا السير مع النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة خيبر لما يتوقعونه من مغنم يأخذونها ، ولو كانت التملة السالفة حقا ما طلبوا السير معه بحال .

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر ، فقالوا إن ذلك حسد من المؤمنين لهم أن ينالوا شيئا من الغنيمة ، فرد الله عليهم ما قالوا ، وأبان أنهم قوم ماديون لا يسمعون إلا للدنيا ، ولا يفهمون ما يعلى شأن الدين ويرفع قدره .

الإيضاح

(سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا تتبعكم) أى سيقول لك الذين تخلفوا عنك في عمرة الحديبية واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهلهم : دعونا نتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغنم . وفي هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة ، والمتخلفين الخالفين بالحرمان .

(يريدون أن يبدلوا كلام الله) فإنه تعالى وعد أهل الحديبية بمغنم خيبر وجدهم لا يشار لهم فيها غيرهم من الأعراب ، فقد جاء في صحيح الأخبار « إن الله وعد

أهل الحديدية أن يعرضهم من مغامم مكة مغامم خير إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئاً .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم إقناطاً وتيثساً من الذهاب معه إلى خير .

(قل لن تتبعونا) أى لا تأذن لهم فى الخروج معك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن امتناعهم عن الخروج إلى الحديدية ما حصل إلا لأنهم كانوا يتوقعون المغرم وهو جلاء العدو ومساواته ، ولا يتوقعون المغرم ، فلما انعكست الآية فى خير طلبوا ذلك فعاقبهم الله بطردهم من المغامم .

ثم أكد هذا المنع بقوله :

(كذلك قال الله من قبل) أى هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا من الحديدية إليكم : إن غنيمة خير لمن شهد الحديدية معنا ، ولستم ممن شهدا ، فليس لكم أن تتبعونا لأن غنيمتها لغيركم .

ثم أخبر بأنهم سيردون عليك مقالك السابق « كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ » فقال : (فسيقولون بل تحسدوننا) أى إن الله ما قال ذلك من قبل ، بل أتم تحسدوننا أن نصيب معكم مغنماً ، ومن ثم منعتونا .

فرد عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد فقال :

(بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) أى ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب : من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنماً ، بل إنما كان لأنهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً ، ولو فقهوا ما قالوا ذلك لرسوله وللمؤمنين ، بعد أن أخبرهم بأن الله يمنعهم غنائم خير .

وفى هذا إشارة إلى أن ردّهم حكم الله ، وإثبات الحسد لرسوله والمؤمنين — ناشئ من الجهل وقلة التدبر .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ
تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ، فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَوَلَّوْا
كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى
حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذَّبْهُ
عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

شرح المفردات

قال الزهري ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولى البأس الشديد بنو حنيفة أصحاب
مسيلة الكذاب، وقال قتادة: هم هوازن وغطفان، وقال ابن عباس ومجاهد: هم أهل
فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، قال ابن جرير: إنه لم يبق دليل من نقل
ولامن عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعمين،
والبأس: النجدة وشدة المراس في القتال، والخرج: الإثم والذنب.

المعنى الجملى

بعد أن رفض سبحانه إشراك المتخلفين في قتال خير عقاباً لهم على تقاعدهم
عن نصره الله ورسوله في الحديبية — أردف ذلك ببيان أن باب القتال لا يزال
مفتوحاً أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء في ميدان القتال فاستعدوا
فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس ونجدة، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوه حتى
تبيدوا خضراءهم، ولا تبقوا منهم دياراً ولا نافخ نار، فإن أجبتكم داعى الله أنابكم على
ما فعلتم جزيل الأجر، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجرون

العذاب الأليم ، ثم ذكر الأعداء المبيحة للتخلف عن الجهاد ، ومنها ما هو لازم كالعمى والرج ، ومنها ما هو عارض يطرأ ويَزول كالمرض ، ثم أعقب ذلك بالترغيب في الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة في الدنيا ، ونار موقدة في الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا ، وترك ما يقربه من ربه .

الإيضاح

(قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) أى قل لهؤلاء المخلفين الذين تقدم ذكرهم — إنكم ستندبون إلى قتال قوم من أولى البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : إما السيف ، وإما الإسلام . وهذا حكم عام في مشركي العرب والمتردين يجب اتباعه .

ثم وعدهم إذا أجابوا بقوله :

(فإن طيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا) أى فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن والثواب الجزيل ، فقتلوا المغانم في الدنيا ، وتدخلوا الجنة في الآخرة .

كما أوعد من نكص على عقبيه بقوله :

(وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) أى وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته ، وتحالفوا أمره ففتركو قتال أولى النجدة والبأس إذا دعيتهم إلى قتالهم ، كما عصيتهم في أمره إياكم بالمسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالمذلة في الدنيا والنار في الآخرة .

ثم ذكر الأعداء المبيحة للتخلف عن القتال فقال :

(ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج) أى لا إثم على ذوى الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لقوا عدوهم للعلل التي بهم ، والأسباب التي تمنعهم من شهودها كالعمى والعرج والمرض .

روى أنه لما نزل قوله « وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ » الآية . قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فأنزل الله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » الآية . وقال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية .

ثم رغب سبحانه في الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأوعد على تركه بقوله : (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً) أى ومن يطع الله ورسوله فيجيب الداعى إلى حرب أعدائه أهل الشرك دفاعاً عن دينه وإعلاء لكلمته — يدخله يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يعص الله ورسوله فيتخلف عن القتال إذا دعى إليه — يعذبه عذاباً موجماً في نار جهنم :

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

شرح المفردات

الرضا : ما يقابل السخط ، يقال رضى عنه ورضى به ورضيته ، والمراد بالمؤمنين أهل الحديبية ، ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، والشجرة : سمرة (شجرة طلع — وهى المعروفة الآن بالسنت) بايع المؤمنون تحت ظلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما فى قلوبهم : أى من الصدق والإخلاص فى المبايعة ، والسكينة : الطمأنينة والأمن وسكون النفس ، فتحاً قريباً : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من

الحديبية كما علمت ، مغنم كثيرة : هي مغنم خيبر وكانت خيبر أرضاً ذات عقار وأموال قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المقاتلة فأعطى الفارس سهمين والراجل سهماً ، عزيزاً : أى غالباً ، حكماً : أى يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال الخلفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكروهم فيما تقدم بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » فأبان رضاهم عنه لأجل تلك البيعة ، لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم ، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش وجازاهم بمغنم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية ، وكان الله عزيزاً : أى غالباً على أمره ، موحداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة .

عن سلمة بن الأكوع قال : « بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، فترنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ » الآية . فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لأبن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

وأخرج البخارى عن سلمة أيضاً قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل على أى شيء كنتم تبايعون يومئذ ؟ قال : على الموت » . وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

الإيضاح

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة بيعة الرضوان ، وقد عرفت أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، كما عرفت أسباب هذه البيعة .

ولما أراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموا هذه الشجرة بعد ذلك كثر اختلافهم فيها ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة غير التي يشير إليها الآخر، قال عمر: سيروا ذهبت الشجرة ، وقال ابن عمر : ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، وكانت رحمة من الله .

وعن نافع قال: بلغ عمر أن ناسا يأتون الشجرة التي بويع تحتها فأمر بها فقطعت وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف .

(فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) أى فعلم ما في قلوبهم من الصدق والسمع والطاعة ، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ورباطة الجأش وأعطاهم جزاء ما وهبوه من الطاعة — فتح خير عقب انصرافهم من الحديبية كما علمت .

(ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وعروضهم في العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم — فتح خير فأخذوا أموال يهودها وعقارهم وكان كثيرا ، وخضعهم بأهل بيعة الرضوان لا يشرّكهم فيه سواهم .

(وكان الله عزيزا حكيما) وكان الله ذا عزة في انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما في تدبير أمور خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

وَعَدَ كُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ
 أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
 مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ
 لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ
 تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
 عَنْهُمْ يَبْتَغْنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَ كُمْ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرًا (٢٤)

شرح المفردات

المغانم الكثيرة: ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة، فعجل لكم هذه: أى مغانم
 خيبر، أيدى الناس: أى أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية ،
 آية: أى أمانة للمؤمنين يعرفون بها: (١) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .
 (٢) حياطة الله لرسوله وللمؤمنين وحراسته لهم فى مشاهدتهم ومغيبهم . (٣) معرفة
 المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كَلَامَتُهُ تَعَالَى ستعهم أيضا ماداموا على الجادة ، الصراط
 المستقيم: هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه فيما تأتون وما تذرّون ، وأخرى: أى
 مغانم أخرى هى مغانم فارس والروم ، أحاط الله بها: أى أعرها لكم وهى تحت
 قبضته يُظْهَرُ عليها من أراد: لوَلَّوْا الْأَدْبَارَ: أى لانهرزموا، والولّى: الحارس الجامى ،
 والنصير: المعين والمساعد ، سنة الله: أى سنّ سبحانه غلبة أنبيائه سنة قديمة فيمن
 مضى من الأمم كما قال: «لَا غَلِبِينَ أَنَا وَرُسُلِي» أيديهم عنكم: أى أيدى كفار

مكة ، وأيديكم عنهم يبطن مكة ، يعنى بالحديبية ، أظفركم عليهم : أى أعلى كلكه وجعلكم ذوى غلبة عليهم ، فإن عكرمة بن أبى جهل خرج فى خصامة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

المعنى الجملى

بعد أن وعدهم فيما سلف بمغانم خير — أردف ذلك ببيان أن ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو الثواب وحده ، بل الجزاء أمامهم ، وإنما عجل لهم هذه لتكون علامة على صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وحياطته له ، وحراسته للمؤمنين وليثبتكم على الإسلام ، وليزيدكم بصيرة ، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم وغيرها ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر أنه لو قاتلكم أهل مكة ولم يصالحوكم لانهمزموا ولم يحدوا ولياً ولا نصيراً يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، ثم امتن على عباده المؤمنين بأنه كف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلوهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(وعدمكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعبث لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً) أى وعدكم الله مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك إلى يوم القيامة ، ولكن عجل لكم مغانم خير ، وكف أيدي

اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخير قاله قتادة واختاره ابن جرير الطبري ، لشكروه ولتكون أمانة للمؤمنين يعلمون بها أن الله حافظهم وناصرهم على أعدائهم على قلة عدوهم ، وليهديكم صراطا مستقيما بانقيادكم لأمره ، وموافقكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويزيدكم يقينا بصلح الحديبية وفتح خير .

روى إياس بن سلمة قال : حدثني أبي قال : « خرجنا إلى خير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عى عامر يرتجز بالقوم ثم قال :

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا
وأُنزلَ سَكِينَةً عَلَيْنَا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قال : أنا عامر ، قال : غفرلك ربك (وما استغفر لأحد إلا استشهد) قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جبل له ، يا نبي الله لو أمتعتنا بعامر ، فلما قدمنا خير خرج قائدهم مَرَحَبٌ يَحْطِرُ بسيفه ويقول :

قد علمت خَيْرَ أُنَى مَرَحَبٍ شاكي السلاح بطل مَجْرَبٍ
إذا الحرب أقيمت تلتهب

فبرز له عامر بن عثمان فقال :

قد علمت خير أُنَى عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلعا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ثُرس عامر ، فرجع سيف عامر على نفسه ، فقطع أكله (الأكل : عرق في اليد) فكانت فيها نفسه ، قال فأتيته النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقلت يا رسول الله بطل عمل عامر ، فقال من قال ذلك ؟ قلت ناس من أصحابك ، قال من قال ذلك ؟ بل له أجره مرتين ، ثم أرسلني إلى

على وهو أرمد وقال لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ،
فأتيت علياً فجئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتقبل في عينيه فبرئ وأعطاه الراية فخرج مرحب وقال :

أنا الذي سمتني أمي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب
فقال عليّ كرم الله وجهه :

أنا الذي سمتني أمي حيدر كليث غابات كرية المنطرة
أكيلكم بالسيف كيل السندرة^(١)

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه .

(وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) أي ووعدكم الله فتح بلاد أخرى
لم تقدروا عليها ، قد حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها
كفارس والروم ، فقد أقدركم عليهم بعز الإسلام وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين
أمامهم لا يستطيعون دفعهم عن أنفسكم .

(وكان الله على كل شيء قديراً) أي وكان الله على كل ما يشاء من الأشياء
ذا قدرة لا يتعذر عليه شيء .

(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً) يقول
سبحانه مبشراً عباده المؤمنين بأنه لو ناجزهم المشركون لنصرهم عليهم ولا نهزم جيش
الكفر فاراً مُدبراً لا يجد ولياً يتولى رعايته ويكلؤه ويحرسه ، ولا نصيراً يساعده ،
لأنه محارب لله ورسوله ولخزبه المؤمنين .

(سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) أي هذه هي سنة
الله في خلقه ، ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيحصل إلا نصر الله المؤمنين على

(١) السندرة : مكبال واسع ، وكيلهم بها قتلهم قتلاً واسعاً ذريعاً .

الكافرين ، ورفع الحق ووضع الباطل كما نصر يوم بدر أوليائه المؤمنين على قلة عددهم وعددهم ، وكثرة المشركين وكثرة عددهم .

(وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة بعد أن أظفركم عليهم)
 أي إن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون عزتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله سرية فأتى بهم أسرى ، ثم خلى سبيلهم ولم يقتلهم منه وفضلا .

روى أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي في آخرين عن أنس قال : « لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح من جبل التنعيم (التنعيم : موضع بين مكة وسرف) فدعا عليهم فأخذوا فعنا عنهم فنزلت هذه الآية : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ) » الخ .

وروى أحمد عن عبد الله بن مغفل المزني رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن أبي طالب وسهيل ابن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضى الله عنه — اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ سهيل بيده وقال : مانعك الرحمن الرحيم ، اكتب في قضيتنا مانعك . قال اكتب باسمك اللهم — وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة ، فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب في قضيتنا مانعك ، فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا في وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل جئتم في عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أمانا ؟

فَقَالُوا لَا ، نَحْنُ سَبِيلُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) « الْآيَةُ .
(وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) أَيْ وَكَانَ اللَّهُ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَعْمَالِهِمْ بَصِيرًا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا ، وَهُوَ مُجَازِيكُمْ وَمُجَازِيهِمْ بِهَا .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا
أَنْ يَبْلُغَ مُحَلَّهُ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَلِسَاءُ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ
تَطَّوُّوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ
يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) .

شرح المفردات

الهدى : ما يقدم قربانا لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ، معكوفاً : أى محبوساً ؛ يقال عكفت الرجل عن حاجته : إذا حبسته عنها ، محله : أى المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى ، والوطء : الدوس ، والمراد به الإهلاك ، وفى الحديث « اللهم اشد وطأتك على مضر » ، والمعرة : المكروه والمشقة ، من عره إذا عراه ودهاه بما يكره والتزيل : التفرق والتميز ، والحمية : الأنفة ، يقال حميت من كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك منه عار ، والمراد بها ثوران القوة الغضبية ، وحمية الجاهلية : حمية فى غير

موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان ، وكلمة التقوى هي : لا إله إلا الله ، وأهلها : أي المستأهلين لها .

المعنى الجملي

بعد أن أبان فيما سلف أن الله كف أيدي المؤمنين عن الكافرين ، وكف أيدي الكافرين عن المؤمنين — عيّن هنا مكان الكف وهو البيت الحرام الذي صدوا المؤمنين عنه ومنعوا الهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، والسبب الذي لأجله كفهم هو كفرهم بالله ، ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لهم بهم فيلزمهم العار والإنهم — لأذن لهم في دخول مكة ، ولقد كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة ليُدخل الله في دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقبل دخولها ، ولينعن الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً بالقتل والسبي حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية التي تمنع من الإذعان للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم الوفاء بالعهد وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبة نبيه .

روى أنه لما هم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتالهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع في عامه على أن تُحلى قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا : لانعرف هذا : اكتب باسمك الله ، ثم قال عليه السلام : اكتب هذا ماصالح عليه رسول الله أهل مكة ، فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون ،

فَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَأْتُوا ذَلِكَ وَأَنْ يَبْطِشُوا بِهِمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ فَتَوَقَّروا
وَاحْتَمَلُوا كُلَّ هَذَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذَلِكَ بِرَوَايَةِ أُخْرَى .

الإيضاح

(هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلُّهُ)
أَيُّ هُمُ الَّذِينَ جَعَلُوا تَوْحِيدَ اللَّهِ وَصَدُّوكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ عَنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
وَصَدُّوا الْهَدْيَ مَجْبُوسًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّ نَحْرِهِ وَهُوَ الْحَزْمُ عُنَادًا مِنْهُمْ وَبَغْيًا ، وَكَانَ
رَسُولُ اللَّهِ سَاقٍ مَعَهُ حِينَ خَرَجَ إِلَى مَكَّةَ فِي سَفَرِهِ تِلْكَ سَبْعِينَ بَدْنَةً .

(وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيِّبُكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ
بَغِيرَ عِلْمٍ) أَيُّ وَلَوْ لَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ إِيمَانَهُمْ خِيفَةً عَلَى أَنْفُسِهِمْ - بَيْنَ أَظْهَرِهِمْ -
لَسَلَّطْنَاكُمْ عَلَيْهِمْ فَتَقَتَلْتُمُوهُمْ وَأَبْدَيْتُمْ خَضِرَاءَهُمْ ، وَلَكِنْ بَيْنَ أَفْنَانِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ مَنْ لَا تَعْرِفُونَهُمْ حِينَ الْقَتْلِ ، وَلَوْ قَتَلْتُمُوهُمْ لَلْحَقَّتْكُمْ الْمَعَرَّةُ وَالْمِشَقَّةُ ،
بِمَا يُلْزِمُكُمْ فِي قِتَالِهِمْ مِنْ كُفْرَانَةٍ وَعَيْبٍ .

وَالْخِلَاصَةُ - إِنَّهُ لَوْلَا وَجُودُ مُؤْمِنِينَ مَخْتَلِطِينَ بِالْمُشْرِكِينَ غَيْرِ مُتَمَيِّزِينَ مِنْهُمْ -
لَوَقَعَ مَا كَانَ جَزَاءَهُمْ لَصَدِّهِمْ وَكُفْرِهِمْ ، وَلَوْ حَصَلَ ذَلِكَ لَزِمَكُمْ الْعَيْبُ ؛ إِذْ يَقُولُ
الْمُشْرِكُونَ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ قَتَلُوا أَهْلَ دِينِهِمْ .

(لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ) أَيُّ وَقَدْ حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ قِتَالِهِمْ لَدُخُولِ مَكَّةَ .
إِخْرَاجَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِهِمْ ، وَلِيَدْخُلَ فِي دِينِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْهُمْ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلُوهَا .

عَنْ أَبِي جَعْفَةَ جَنِيدِ بْنِ سَبْعٍ قَالَ : « قَاتَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ
النَّهَارِ كَافِرًا وَقَاتَلَتْ مَعَهُ آخِرَ النَّهَارِ مُسْلِمًا ، وَفِينَا نَزَلَتْ : وَلَوْ لَا رِجَالُ الْحِجَابِ . وَكُنَّا تِسْعَةٌ
نَفَرٍ سَبْعَةُ رِجَالٍ وَامْرَأَتَيْنِ » ، وَفِي رَوَايَةِ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ « كُنَّا ثَلَاثَةَ رِجَالٍ وَتِسْعَ نِسَاءٍ »
أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو يَعْلَى وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ .

(لوتزىلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطنا كم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا .

ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته فقال :

(إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الجمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) أى لعذبناهم حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية ، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب فى كتاب الصلح الذى بين رسول الله والمشركين (بسم الله الرحمن الرحيم) وأن يكتب فيه (محمد رسول الله) وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه هذا المسجد الحرام ، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله ففهم عن الله مراده وجرى على ما يرضيه ، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أمره وقبلوه ، وحامهم من هزات الشياطين وألزمهم كلمة التوحيد والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أحق بها ، وكانوا أهلها ، إذ هم أهل الخير والصلاح .

(وكان الله بكل شئ عليما) سواء أكان من المؤمنين أم من الكفار فيجازى

كلا بما عمل .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ
 تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
 رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ
 شَهِيدًا (٢٨) .

شرح المفردات

الرؤيا : هي رؤيا منام وحُلْم ، وصدق الله رسوله الرؤيا : أى صدقه فى رؤياه ولم يكذبه ، محلقين رؤوسكم ومقصرين : أى يحلق بعضهم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ليظهره على الدين كله : أى ليعليه على سائر الأديان : حقها وباطلها ، وأصل الإظهار : جعل الشيء باديا ظاهرا للرائى ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

المعنى الجملى

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، آمنين منهم ، آمنين من يخلق ومنهم من يقصر ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : أين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : ألسنت نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا إذن ؟ قال إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أولست كنت تحدثنا أناسنا فى البيت ونطوف به ؟ قال فأنتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سيأتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى . قال فأخبرك أنه آتية العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتية وتطوف به . »

الإيضاح

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ، فلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا)
 أى لقد صدق الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين لا يخافون أهل الشرك ، محققاً بعضهم ومقصرًا بعضهم الآخر ، فلم جل ثناؤه مالم تعلموا ، وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها هذا العام لوطئوهم بالخليل والرجل فأصابتهن منهم معرفة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك ، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحا قريبا هو صلح الحديبية وفتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر اليوم الموعود .

ثم أكد صدق الرسول فى الرؤيا بقوله :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) أى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليبطل به الملل كلها بنسخ سائر الديانات ، وإظهار فساد العقائد الزائفات ، حتى لا يكون دين سواه .

ولما كان هذا وعدا لا بد من تحققه أعقبه بقوله :

(وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان كائن لا محالة .

وفى هذا تسلية له عما وقع من سهيل بن عمرو ، إذ لم يرض بكتابة « محمد رسول الله » وقال ما قال .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ

الشُّجُودَ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوَارَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ
فَأَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩).

شرح المفردات

أشداء : واحدهم شديد ، رحماء : واحدهم رحيم ، فضلا : أى نوابا ، والسياء
والسيمياء من السومة (بالضم) وهى العلامة كما قال :

غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لا تشق على البصر

مثلمهم : أى وصفهم العجيب الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة ، والشطء : فروخ
الزرع ، وهو ماخرج منه ، وتفرع فى شاطئيه : أى جانبيه وجمعه أشطاء ، وشطأ الزرع
وأشطأ : إذا أخرج فراخه ، وهوى الحنطة والشعير والتخل وغيرها ، وآزره : أعانه وقواه
وأصله من المؤازرة وهى المعاونة ، واستوى على سوقه : أى استقام على قصبه وأصوله ،
والموق ، واحدها ساق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر
الأديان — أردف هذا ببيان حال الرسول والمرسل إليهم ، فوصفهم بأوصاف كلها
مذائح لهم ، وذكري لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم وامتلكوا الدول وقبضوا على
ناصية العالم أجمع ، وهى :

(١) إنهم غلاظ على من خالف دينهم وناوأم العداة ، رحماء فيما بينهم .

(٢) إنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله دينهم فى أكثر أوقاتهم .

(٣) إنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم والرفق إليه ورضاه عنهم .

(٤) إنهم لهم سيمى يعرفون بها ، فلهم نور في وجوههم ، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن :

(٥) إن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل فقال : سيخرج قوم ينبئون نبات الزرع ، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذاك أنهم في بدء الإسلام كانوا قليلي العدد ثم كثروا واستحكموا وترقى أمرهم يوما فيوما حتى أعجب الناس بهم ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله بمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها .

الإيضاح

(محمد رسول الله) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله بلا شك ولا ريب مهما أنكر المنكرون ، وافترى الجاحدون .

(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) أى إن صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار ، رقيقة قلوب بعضهم على بعض ، لينة أنفسهم لهم ، هينة عليهم .

ونحو الآية قوله : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةَ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » وفي الحديث « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الأعضاء بالحسنى والسر » وقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه » وعلى هذا جاء قوله :

حليم إذا ما الحلم زين أهله على أنه عند العدو مهيب

(ترام ركعا سجدا يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً) أى تراهم دائبين على الصلاة مخلصين لله محتسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده طالبين رضاه عنهم «وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ» .

(سيامهم في وجوههم من أثر السجود) أى لهم سمت حسن وخشوع وخضوع يظهر أثره في الوجوه ، ومن ثم قيل : إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفلتات لسانه .

والخلاصة — إن كل ما يفعله المرء أو يتصوره يظهر على صفحات الوجه ، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله عز وجل ظاهره للناس .

روى عن عمر أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته ، وعن أبى سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كأننا ما كان» .

ثم أخبر سبحانه أنه نوه بفضلهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة فقال : (ذلك مثلهم في التوراة) أى هذه الصفة التي وصفت لكم من صفات أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هي صفتهم في التوراة .

(ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرُونَ ويستغلظون كزرع أخرج فراخه التي تنفرع على جانبيه كما يشاهد في الخنطة والشعير وغيرها ، فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ، فيعجب به الزراع لقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة — إن هذا مثل ضرب به الله لبدء الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم وأعجب الناس .

روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتى أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم علي ، وأقرؤهم أبي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأكمل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .

ثم بين أنه إنما جعلهم كذلك .

(ليغيظ بهم الكفار) أى إنه تعالى نأهم وأكثر عددهم ليغيظ بهم الكفار ، إذ يعتقدون أن الله متم بهم نوره ولو أبى الجاحدون .

[تنبيه] هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها ، فانظر الآن وتأمل في تخاذلها وجهلها حتى أصبحت مثلاً في الخول والجهل ، وأصبحت زرعاً هشيماً تذروه الرياح ، فكيف يجتمع عصفه وتنبه ؟

ولعل الله يبدل الحال غير الحال ويخضر الزرع بعد ذبوله ، وتعود الأمة سيرتها الأولى مهيبة مرعية الجانب مخشية القوة .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) أى وعد سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم جنات النعيم ، ووعد الله حقاً وصدق لا يخلف ولا يبذل .

وكل من اقتنى أثر الصحابة فهو في حكمهم ، ولهم السبق والفضل والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد .

روى مسلم في صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابى ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه » رضى الله عنهم وأرضاهم .

[خاتمة] هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطول ، وسيأتى القسم الثانى ، وهو المفصل .

خلاصة مقاصد هذه السورة

- (١) بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح وإعزاز دين الله .
- (٢) وعد المؤمنين ووعيد الكافرين والمنافقين .
- (٣) ذم الخلق من عرب أسلم وجهينة ومزينة وغفار .
- (٤) رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، ووعد إياهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .
- (٥) البشرى بتحقيق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين وقد تم لهم ذلك في العام المقبل .
- (٦) وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشدّة .
- (٧) وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم .

سورة الحجرات

هي مدنية ، عدة آياتها ثمان عشرة ، نزلت بعد سورة المجادلة .
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) ذكر في هذه قتال البغاة ، وفي تلك قتال الكفار .
- (٢) إن السابقة ختمت بالذين آمنوا ، وافتتحت هذه بهم .
- (٣) إن كلا منهما تضمن تشريفا وتكريما للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما في مطالعتهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

شرح المفردات

لا تقدموا : أى لا تتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب : أى لا تعجل بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، ورجح هذا ، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي : أى إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء

الحمد الذي يبلغه بصوته ، يفضون أصواتهم : أى يخفضونها ويلينونها ، امتحن الله قلوبهم : أى طهرها ونقاها كما يتمحن الصائغ الذهب بالإذابة والفتقية من كل غش .

المعنى الجملى

ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال لأن الأولى كالمقدمة والثانية كالنتيجة وذكرنا هذه بعد الفتح ، لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، واستتب الأمر ، وجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ والآداب التي يجب أن يكونوا عليها ، فهم قد وصفوا في الأمثال المضروبة في التوراة والإنجيل بالتراحم فيما بينهم والركوع والسجود والعظم والقوة — وهنا ذكر كيف يعاملون الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يعامل بعضهم بعضاً ؟ فطلب إليهم ألا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به ، ولا يرفعوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجهروا له بالقول كما يجهرون بعضهم لبعض لما في ذلك من الاستخفاف الذي قد يؤدي إلى الكفر المحبط للأعمال .

الإيضاح

أدب الله المؤمنين إذا قابلو الرسول بأدبين : أحدهما فعل ، وثانيهما قول ، وأشار إلى أولهما بقوله :

(١) (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) أى يأيها المؤمنون لا تعجلوا بقضاء أمر قبل أن يقضى الله ورسوله لكم فيه ، إذ ربما تقضون بغير قضائهما ، وراقبوا الله أن تقولوا ما لم يأذن لكم الله ورسوله به ، إن الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم .

وينجو هذا أجاب معاذ بن جبل رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له « بم تحكم ؟ » قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال بسنة رسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيي ،

فضرب في صدره وقال : الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى رسوله .
رواه أحمد وأبو داود والترمذي . صنف بجميع طرقه : نظر السلسلة كضعفه كذا يلاحظ .
فقرأه قد أخرج رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان من
المتقدمين بين يدي الله ورسوله .

والخلاصة — إنه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه ، ولا يجعلوا بقول
أو فعل قبل أن يقول الرسول أو أن يفعل ، فلا يذبحوا يوم عيد الأضحي قبل أن يذبح ،
ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه .
وأشار إلى ثانيهما بقوله :

(٢) (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي) أى إذا نطق
ونطقتم فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، ولا تبالغوا بها وراء الحد الذي يبلغه ، لأن
ذلك يدل على قلة الاحترام ، وترك الاحترام .

روى البخارى بسنده عن ابن أبي مليكة « أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه
أخبره أنه قدم ركب من تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه :
أمر القمقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله
عنه : ما أردت إلا خلاقي ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أردت خلافتك ، فماريا حتى
ارتفعت أصواتهما فزلت : (يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم) الآية . فكان
أبو بكر بعدها لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى الممرار ، وما حدث
عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه مما يخفص صوته . »

(ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)
أى وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الذى يدور بينكم ، أو أن
تقولوا يا محمد ، يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم ، خشية أن يؤدي
ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب فتكفروا من حيث لا تشعرون .

ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية وإني رجل جهيز الصوت ، فأخاف أن يكون علي قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، وإنك في أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :

(إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) أى إن الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع الحن والتكليف الشاقة حتى ظهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم انفسهم أصواتهم ولسائر طاعتهم .

روى أحمد في الزهد عن مجاهد قال : كتب إلى عمر ، يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

إِنَّ الَّذِينَ يَنَادُونَكَ مِنَ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٥)

شرح المفردات

من وراء الحجرات : أى من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته

لا يكون وراءك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحدة حجرة : وهى القطعة من الأرض المحجورة ؛ أى المنوعة عن الدخول فيها بمحاطة ونحوه ، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجرة من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيب يومئذ : لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهّد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

المعنى الجملى

ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فى بيوت نسائه كما يفعل أجناس الأعراب ، ثم أرشدهم إلى مافيه الخير والمصلحة لهم فى دينهم ودنياهم ، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم .

روى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا ننش يحنأه ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجرة النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته يا محمد يا محمد ، فأنزّل الله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى فدها وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد . لقد صدق الله قولك يا زيد . »

وقال قتادة : نزلت في وفد تميم وكانوا سبعين رجلا منهم الزُّبَيْرُ بْنُ بَدْرٍ
وعُطَارْدُ بْنُ حَاجِبٍ وقيس بن عاصم وعمرو بن الأهتم ، جاءوا إلى النبي صلى الله عليه
وسلم للمفاخرة ، فنادوا على الباب : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا لزين ، وإن ذمنا
لشَيْن ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلکم الله الذي
مدحه زين وذمه شين ، فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك
ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفاخار أمرت ، ولكن هاتوا
قمام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم للثابت بن قيس
ابن شماس وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه فأجابه ، وقام الزُّبَيْرُ بْنُ
بَدْرٍ فقال :

نحن الكرامُ فلا حيَّ يعادلنا منا الملوكُ وفينا تُنصَّبُ البيعُ
إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حيٍّ يفاخرهم إلا استقادوا فكانوا الرأسُ يُقْتَطَعُ
فمن يفاخرنا في ذاك تعرفه فيرجع القوم والأخبارُ تُسْتَمَعُ
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم قد بينوا سنة للناس تُتَّبَعُ
يرضى بها كل من كانت سريره تقوى الإله وكل الخير يُصْطَفَعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرَّوا عدوهم أو حاولوا النفع في أشياءهم نفعوا
سجيةً تلك منهم غير محدثة إن الخلائق فاعلم شرُّها البدعُ

في قصيدة طويلة ، فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي إن
هذا الرجل لمؤنني له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ،
ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد

أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يضرك ما كان من قبل هذا ، ثم جوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

الإيضاح

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) أى إن الذين ينادونك من وراء حجرات نساءك أكثرهم جهال بما يجب لك من الإجلال والتعظيم . والمراد بالحجرات موضع خلوته ومقيله مع بعض نساته .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) أى ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله ، لأنه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك .

(والله غفور رحيم) أى والله ذو غفو عن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصيته بنذائك كذلك ، وراجع أمر الله في ذلك وفي غيره ، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه .

والخلاصة — إن الله سبحانه يحسن الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبه إلى فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً لا يقدر قدره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِئُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم

الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

شرح المفردات

الفاسق : هو الخارج عن حدود الدين من قوهم : فسق الرطب إذا خرج من قشره ، والتبين : طلب البيان ، والنبا : الخبر ، قال الراغب : ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة به يحصل علم أو غلبة ظن ، بجهالة : أى جاهلين حالهم فتصبحوا : أى فتصيروا ، نادمين : أى مغتمين غما لازما متمدين أنه لم يقع ؛ فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه ، لعنتهم : أى لوقعتم في الجهد والمهلك ، والكفر : تغطية نعم الله تعالى بالبحود لها ، الفسوق : الخروج عن الحد كما علمت ، والعصيان : عدم الانقياد ، من قوهم : عصت النواة : أى صلبت واشتدت ، والرشاد : إصابة الحق واتباع الطريق السوى .

المعنى الجملى

هذا أدب أدب الله به عباده المؤمنين — أنه إذا جاءهم الفاسق الجاهر بترك شعائر الدين بأى خبر ، لا يصدقونه بأذى بدى حتى يتثبتوا ، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله ، فإن من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذى هو من فضيلته — كراهة أن يُصيدوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم وتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع .

روى عن ابن عباس « أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، وكان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق ليأخذ الصدقات ، فلما أتاهم الخبر فرحوا به وخرجوا يستقبلونه ، فلما حدث بذلك الوليد حسب أنهم جاءوا لقتاله ،

فرجع قبل أن يلزمه وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، وبينما هو يتحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا يا رسول الله : إنا حدثنا أن رسولك رجع من نصف الطريق ، وإنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك تغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال : (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ الآية) . أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه . وقال ابن كثير : وهذا من أحسن ما روى في سبب نزول الآية .

وقال الرازي : هذه الرواية ضعيفة لأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والخطأ لا يسمى فاسقا ، كيف والفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من ربة الإيمان لقوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » اهـ . ثم بين أن صحبه كانوا يريدون أن يتبع رأيهم في الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعوا في العنت والهلاك ، ولكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وهؤلاء أهل الرشاد والسالكون الطريق السوي .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصيبوا على ما فعلتم نادمين) أي يا أيها المؤمنون إن جاءكم الفاسق بأى نبأ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشف الحقيقة ، ولا تعتمدوا على قول الفاسق ، فإن من لا يبالي بالفسق فهو أجدر ألا يبالي بالكذب ولا يتحاماها — خشية إصابتكم بالأذى قوما أتم جاهلون حالهم ، فتندموا على ما فرط منكم وتمنوا أن لو لم تكونوا فعلتم ذلك .

ثم وعظهم سبحانه بعضة هم أخرى الناس باتباعها فقال :

(واعلموا أن فيكم رسول الله) أى واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فمظموه

ووقروه وتآدبوا معه وانقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أنتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ ۝ ١٠ ۖ فَمَنْ دَخَلَ بُيُوتَهُمْ فَسَلِّمُوا عَلَيْهَا رَبِّهَا ذَٰلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُفْهَمُونَ ۝ ١١ ۖ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِالْعَمَلِ فَلْيُجِدْ فِي السُّلُوكِ مِثْلَ نَبِيِّهِ إِذَا سَلَ ۖ وَجْهَهُ لَهٗ ، وَلَا يَسَارِعْ إِلَى الْعَمَلِ بِمَا يَبْلُغُهُ قَبْلَ النَّظَرِ فِيهِ .

(لويطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) أى لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقفتم في الجهد والإثم ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه .

عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية وقال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ، أخرجه الترمذى . ثم استدرك على ما سلف لبيان عذر بعضهم فقال :

(ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى ولكن جمعا منكم براء مما أنتم عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم ، فلا يقع منهم إلا ما يوافقهم ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع في الأخبار ، وكره إليهم هذه الأمور الثلاثة : الكفر والفسوق والعصيان .

والخلاصة — إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان .

(أولئك هم الراشدون) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة ولم يغلوا عن الاستقامة :

(فضلا من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه تفضل منه عليكم وإنعام من لديه .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الفواية ، حكيم فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

والخلاصة — إن رسول الله بين أظهركم وهو أعلم بمصالحكم ، لو أطاعكم فى جميع ما تختارونه لأدى ذلك إلى عنقكم ووقوعكم فى مهاوى الردى ، ولكن بعضا منكم حبب إليهم الإيمان فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الذين أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَنفِيَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

شرح المفردات

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » فأصلحوا بينهما : أى فكفوها عن القتال بالنصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، بغت : أى تعدت وجارت ، تنفى : أى ترجع ، وأمر الله : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : « وَأَصْلَحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فأصلحوا بينهما بالعدل : أى بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات بحيث يكون الحكم عادلا حتى لا يؤدى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى ، وأقسطوا : أى واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القسط . (بالفتح) وهو الجور ، والقاسط : الجائر كما قال : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » والإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ، واحدهم

أخ، وقد جعلت الأخوة في الدين كالأخوة في النسب وكأن الإسلام أب لهم قال قائلهم :

أبى الإسلام لأب لى سواه إذا افتخروا بقبس أو تميم

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبأ الصادر من الفاسق — بين هنا ما ربما ترتب على خبره من النزاع بين فئتين وقد يشول الأمر إلى الاقتتال ، فطلب من المؤمنين أن يزيلوا ما نتج من كلامه ، وأن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرة إن أمكن ، أو باستعداد الحاكم عليها ، وإن كان الباغى هو الحاكم فالواجب على المسلمين دفعه بالنصيحة فما فوقها بشرط ألا تثير فتنة أشد من الأولى .

ثم تم الإرشاد وأبان أن الصلح كما يلزم بين الفئتين — يجب بين الأخوين ، ثم أمرهم بتقوى الله ووجوب اتباع حكمه وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم أطاعوه ولم يخالفوا أمره .

روى قتادة أن الآية نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مداراة في حق ، فقال أحدهما للآخر : لآخذنَّ حتى منك عنوة لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تدافعا وتناول بعضهم بعضاً بالأيدي والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

الإيضاح

(وإن طائفتان من المؤمنين أقتتلا فأصلحوا بينهما) أى وإن اقتتلت طائفتان من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه ، سواء كان لهما أو عليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تنفيء إلى أمر الله) أي فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتعدت ماجعله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التي تعتدى وتأنى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائعة له .

(فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل) أي فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال في وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل في كل أمورهم فقال :
(وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) أي واعدلوا في كل ما تأتون وما تذكرون ، إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .
وفي الصحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت يا رسول الله : هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرته إياه » .

(إنما المؤمنون إخوة) أي إنهم منقسمون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفي الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يحذله ولا يتناول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له غرقة ، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يظلمونهم منها ، ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل » وفي الصحيح أيضا :
« إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثل » .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله :

(فأصلحوا بين أخويكم) في الذين كما تصلحون بين أخويكم في النسب .

(واتقوا الله) في كل مآثون وما تذكرون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين .

(لعلكم ترحمون) أي رجاء أن يرحمكم ربكم ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطعتموه واتبعتم أمره ونهيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

شرح المفردات

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ؛ والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالحكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعتته ، أو على قبح صورته ، والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما في الآية ، وقال زهير .

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حِصْن أم نساء
ولا تلمزوا أنفسكم : أي لا يعيب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فتى عاب المؤمن المؤمن فكأنما عاب نفسه ، والتنازع : التعاير والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتأذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يتب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً .

روى أن الآية نزلت في وفد تميم إذ كانوا يستهزئون بقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كهمار وصهيب وبلال وخباب وابن فهيرة وسلمان الفارسي وسالم مولى أبي حذيفة في آخرين غيرهم لما رأوا من رثانة حالهم .

وروى أنها نزلت في صفية بنت حيي بن أخطب رضى الله عنها: أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « إن النساء يقلن لى : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت : أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد » .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) أى لا يهزأ ناس من المؤمنين بآخرين : ثم ذكر العلة في ذلك فقال :

(عسى أن يكونوا خيراً منهم) أى فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين كما جاء في الأثر « قرب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله تعالى لأبره » .

فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تتعظمه عينه لرثانة حاله أو لكونه ذا عاهة في بدنه أو لكونه غير لبق في محادثته ، فلعله أخلص ضميراً وأنقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى .

« (ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن) أى ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور منهن خيراً من الساخرات ، وأتى بالجمع فى الموضعين ، من قبل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس ، وكـم من متلذذ بها ، وكـم من متألم منها .

روى الترمذى عن عائشة قالت : حكيت للنبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال : « ما يسرنى أى حكيت رجلاً وأن لى كذا وكذا ، قالت فقلت يا رسول الله إن صفيه امرأة وقالت ^(١) بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة ، فقال : لقد مزجت بكلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وفى هذا إيماء إلى أن المرء لا يقطع بمدح أحد أو عيبه كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو الخالفة فاعلم من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محموداً يغفر له بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

« (ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعيب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية . وفى قوله : « أنفسكم » تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغي أن يعيب غيره لأنه كنفه ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقال عليه الصلاة والسلام : « يبصر أحدكم القذاة ^(٢) فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه » .

(١) تطلق العرب القول على جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان توسعاً فى الاستعمال .

(٢) ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

لاتكشفن من مساوى الناس ماستروا فيهلك الله سائرا عن مساويكا
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحدا منهم بما فيكا
(ولا تنازروا بالألقاب) أى لا يدع بعضكم بعضا باللقب الذى يسوءه ويكرهه
كان يقول لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ،
أو يا نصرانى :

قال قتادة وعكرمة عن أبى جيرة بن الضحاك قال : فى بنى سامة نزلت (ولا
تنازروا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فىنا رجل إلا وله
اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدا باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه
يكرهه فنزلت . أخرجه البخارى فى الأدب وأهل السنن وغيره .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التناز بالألقاب أن يكون الرجل
قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق ، فنهى الله تعالى أن يعير بماسلف من عمله .
أما الألقاب التى تكسب حمداً أو مدحاً وتكون حقاً وصدقا فلا تكره كما قيل
لأبى بكر: عتيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلی : أبو تراب ، ولخالد
سيف الله .

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا
بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان واشتغالهم به .
وفى هذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصبوة بعد
الشيخوخة أى معها :

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) أى ومن لم يتب من نبهه أخاه بما نهى الله
عن نبهه من الألقاب أو لمزه إياه أو سخريته منه ، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم
فأكسبوها عقاب الله بعصيانهم إياه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

شرح المفردات

اجتنبوا: أى تباعدوا، وأصل اجتنبته: كنت منه على جانب، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له، والإثم: الذنب، والتجسس: البحث عن العورات والمعايب والكشف عما ستره الناس، والغيبة: ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته».

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بأداب إن تمسكوا بها كانت محلبة للمودة والوئام بينهم: منها ما تقدم قبل هذا، ومنها ما ذكره هنا، وذلك من الأمور العظام التى تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامى قوة:

(١) البعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون، لأن بعض ذلك قد يكون إثما محضا فليجتنب كثير منه، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا.

(٢) البحث عن عورات الناس ومعايبهم.

(٣) عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون فى غيبتهم، وقد مثل الشارع المغتاب بأكل لحم الميتة استفظاعا له.

قال قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك
فاكره لحم أخيك وهو حي .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى يأبىها الذين آمنوا ابتعدوا
عن كثير من الظن بالمؤمنين ، بأن تظنوا بهم سوء ما وجدتكم إلى ذلك سبيلاً ،
ففى الحديث « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » .
ولا يحرم سوء الظن إلا ممن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ،
أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الخانات أو يصاحب الغواني الفواجر فلا يحرم
سوء الظن به .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض
إخوانى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن ضَعْ أمر أخيك على أحسنه
مالم يأتك ما يغلبك ، ولا تظنَّ بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها
فى الخير محملاً ، ومن عرَّض نفسه للتهمة فلا يلومنَّ إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت
الخيرة فى يده ، وما كاذبات من عصى الله تعالى فيك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك
بإخوان الصدق فكُنْ فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرخاء ، وعُدَّة عند عظيم
البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فيهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ،
ولا تضع حديثك إلا عند من تشتهيه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك
واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور فى أمرك الذين
يخشون ربهم بالغيب .

ثم علل الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله :

(إن بعض الظن إثم) أى إن ظن المؤمن بالمؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهى
عنه فعلة إثم . ونحو الآية قوله : « وَظَنَنْتُمْ ظَنَّهُ السَّوْءَ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .

ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهامهم عن التجسس فقال :

(ولا تجسسوا) أى ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره
يقتضى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقتنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحمدوا
أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم
والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا
ولا تباغضوا ولا تداربوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق
ثلاثة أيام » التجسس : البحث عما يكتُم عنك ، والتحسس : طلب الأخبار والبحث
عنها ، والتناجش : البيع على بيع غيرك (الزيادة عليه) والتدارب : الهجر والقطيعة .

وعن أبي بَرَزَةَ الأسلمي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر من
آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عورتهم ، فإن من
اتبع عورتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في عُقر بيته » .

وروى الطبراني عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ثلاث لازمات لأمتي : الطَّيْرَةُ والحسد وسوء الظن ، فقال رجل
وما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا حسدت
فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : حُرست ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة ؛ إذ تبين
لنا سراج في بيت بابه مجاف على قوم لهم أصوات مرتفعة وانط ، فقال عمر : هذا
بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شَرِب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد
أتينا ما نهى الله عنه ، قال تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » وقد تجسسنا ، فانصرف
عمر وتركهم .

وقال أبو قلابة : حَدَّثَ عمر بن الخطاب أن أبا محجن الثقفي يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجن : إن هذا لا يحل لك ، قد نهاك الله عن التجسس . فخرج عمر وتركه .

(ولا يغتب بعضكم بعضاً) أى ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره في غيبته ، والمراد بالذكر الذكر صريحاً أو إشارة أو نحو ذلك مما يؤدى مؤدى النطق ، لما في ذلك من أذى للغتاب ، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات ، فهى النار تشتعل فلا تبقى ولا تذر ، والمراد بما يكره ما يكرهه في دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو ملبسه أو غير ذلك مما يتعلق به .

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله : الغيبة ، والإفك ، والبهتان .

(١) فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه .

(٢) وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلفك عنه .

(٣) وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر وأن على من اغتاب أحداً التوبة إلى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قرة : لو مرَّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) فقلت هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق .

ثم ضرب سبحانه مثلاً للغيبة للتنفير والتحذير منها فقال :

(أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) أى يجب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ؟ فإذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فكذلك فاكرهوا أن تغتابوه فى حياته .

والخلاصة — إنكم كما تكرهون ذلك طبعاً فاكرهوا ذلك شرعاً لما فيه من شديد العقوبة .

وقد شبهت بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه ، وقد جاء هذا على نهج العرب في كلامهم . قال المَقْنَع الكِنْدِي :
فإن أكلوا لحمي وفَزْتُ لحومهم وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجداً
وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أُنح ميت تصويراً له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعاً .

سمع على بن الحسين رضى الله عنهما رجلاً يقتاب آخر فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس ، وقيل لعمر بن عُبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمنك ، قال : إياه فارحوا .

وقال رجل للحسن البصرى : بلغنى أنك تغتابنى ، فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتى .

وقد ثبت في الصحيح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خطب في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

(واتقوا الله) أى فاكروها الغيبة واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه وراقبوه واخشوه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله تواب رحيم) أى إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به أن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزماً مؤكداً على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعاً لا يتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك في ستة أمور :

- (١) التظلم ، فلمن ظلم أن يشكو لمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .
 (٢) الاستعانة على تغيير المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .
 (٣) الاستفتاء فيجوز للمستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له ذلك ؟

(٤) تحذير المسلمين من الشر كجرّح الشهود والرواة والمتصدّين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكان يشير وإن لم يُستشر على مريد الزوج أو مخالطة غيره في أمر ديني أو دنيوي ويقتصر على ما يكفي ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .

(٥) أن يجاهروا بالفسق كالمدمنين على شرب الخمر وارتياح محالّ الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .

(٦) التعريف بقلب أو نحوه كالأعور والأعمش ونحو ذلك إذا لم تمكن المعرفة بغيره .

والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها مع ولوع الناس بها حتى إن بعضهم يقولون : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) .

شرح المفردات

من ذكر وأنثى : أى من آدم وحواء ، قال على كرم الله وجهه :
 الناس فى عالم التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء
 فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحد هم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد كربيعة ومضر ، والقبيلة دونه كبكر من ربيعة وتيم من مضر . وحكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع : الشعب ثم القبيلة ثم العارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعمائر تحت القبائل ، والبطنون تحت العمائر ، والأنخاذ تحت البطنون ، والفصائل تحت الأنخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، ونخزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسر ها) وقصى بطن ، وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا للشعب القبائل منه كشعب أغصان الشجرة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن السخرية بالناس والازدراء بهم ، وعن الغز والتنازع بالألقاب — ذكر هنا ما يؤكد النهى ويؤيد ذلك المنع ، فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة ، فكيف يسخر الأخ من أخيه ؟ إلى أنه تعالى جعلهم شعوبا وقبائل مختلفة ، ليحصل بينهم التعارف والتعاون في مصالحهم المختلفة ، ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكمال النفس ، لا بالأموال الدنيوية الزائلة .

ذكر أبو داود أن الآية نزلت في أبى هند وكان حجام النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أباهند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ » الآية .

الإيضاح

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) أى إنا أنشأناكم جميعا من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من بعض، ويلمز بعضكم بعضا وأنتم إخوة فى النسب، وبعيد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبره .

وعن أبى مليكة قال : لما كان يوم فتح مكة رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل ابن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره ، فأتى جبريل النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، وبين أن الفضل بالتقوى .

وروى الطبرى قال : « خطب رسول الله بمضى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال :

يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحمر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب » .

وعن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإنما أنتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أى للتعارف لا للتناكر ، والعز والسخرية والغيبة تفضى إلى ذلك .

ثم ذكر سبب النهي عن التفاخر بالأنساب بقوله :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

روى ابن عمر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبَةَ الجاهلية وتعظُمها بأبائِها ، فالناس رجلان : رجل برّ يَتَّقِي كَرِيمَ عَلَى اللَّهِ ، ورجل فاجر شَقِي هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى ، إن الله عز وجل يقول : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بكم وبأعمالكم ، خير بباطن أحوالكم ، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَعْلَمُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يُعْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ،

قُلْ لَا تَأْمَنُوا عَلَىٰ إِسْلَامِكُمْ بِلِ اللَّهِ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨).

شرح المفردات

الأعراب : سكان البادية ، آمناً : أى صدقنا بما جئت به من الشرائع وامثلنا
ما أمرنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، أسلمنا : أى اتقنا لك ودخلنا فى السلم
وهو ضد الحرب : أى فلسنا حرباً للمؤمنين وعونا للشركيين ، لا يلتكم : أى لا ينقصكم ،
يقال لانه يليتته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلولية « الحمد لله الذى
لا يُفَات ولا يُلَات ولا تُصَمُّ الأصوات » ينعون عليك : أى يذكرون ذلك ذكر
من اصطنع لك صنيعاً ، وأسدى إليك نعمة .

المعنى الجملى

بعد أن حث الناس على التقوى — وتخرج من فى إيمانه ضعف من الأعراب
الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لأنهم كانوا يريدون المغام وعرض الدنيا ،
إذ جاءوا فى سنة مجدية ، وكانوا يقولون لرسوله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالآمال
والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة والمن على النبى
صلى الله عليه وسلم ، فأطلع الله نبيه على مكنون ضمائرهم ، وأنهم لم يؤمنوا إيماناً
حقيقياً ، وهو الذى وافق القلب فيه اللسان ، وأمرهم أن يقولوا : استسلمنا وخضعنا ،
ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وقام أجورهم كاملة غير منقوصة ، ثم بين أن
من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ببذلها فى تقوية دعائم
الدين وإعلاء شأنه وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة ، ثم أعقب هذا بأن الله

يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوى ؛ إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه ، بل من حقّ الرسول أن يمتنّ عليه بأن وفقه إلى الهداية على يديه إن كان صادق الإيمان ، ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه ، وإحاطته بمكنون سرّ خلقه في السموات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شر ، قال مجاهد : نزلت في أعراب من بنى أسد بن خزيمه (وكانوا يجاورون المدينة) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الشهادات ولم يكونوا مؤمنين حقاً .

وقال السدّي : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزيّنة وجّهينة وأسلم وغفار والذيل وأشجع ، قالوا آمنا لياثمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنّفروا إلى المدينة تخلفوا .

الإيضاح

(قالت الأعراب آمنا) أى قالت الأعراب : صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فردّ الله عليهم مكذبا لهم مع عدم التصريح بذلك فقال :

(قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلفنا) أى قل لهم : إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعد ، بدليل أنكم منتم على الرسول بترك مقاتلته ، ولكن قولوا : أنقذنا لك ، واستسلمنا ولا ندخل معك في حرب ، ولا نكون عوناً لعدوك عليكم .

وجاءت الآية على هذا الأسلوب ، ولم يقل لهم كذبتهم ، ولكن قولوا أسلفنا ، حملا له عليه السلام على الأدب في التخاطب ليتأسى به أتباعه ، فيلينوا لمن يخاطبونهم في القول .

(ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى قولوا أسلفنا فحسب ، لأنه لم يدخل الإيمان

في قلوبكم بعد ، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان ، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر في أعمالكم ، فلم تتغذَّ بها أرواحكم ، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم .

قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن اهـ .

(وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا) أى وإن تطيعوا الله ورسوله وتحصلوا له في العمل وتتركوا النفاق لا ينقص سبحانه من أجوركم شيئا ، بل يضاعف ذلك أضعافا كثيرة .

ولما كان الإنسان كثير المفقوات مهما اجتهد - ذكر أنه غفور لرلانه فقال :
(إن الله غفور رحيم) أى إنه ستار للمفقوات ، غفار لزلات من تاب وأناب وأخلص لربه ، رحيم به أن يعذبه بعد التوبة ، بل يزيد في إكرامه ، ويصفح عن آثامه .

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) أى إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يترزّلوا بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه - أولئك هم الصادقون في قولهم : آمنا ، لا ك بعض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفا من السيف ليحققوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

ثم أكد ما سبق من قوله : لم تؤمنوا بقوله :

(قل أتعلمون الله بدينكم ؟) أى قل لهم : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوارحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقا .

(والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فلا يخفى عليه مثقال ذرة فيهما .
وفى هذا تجهيل وتوبيخ لهم لا يخفى أمره .

(والله بكل شىء عليم) فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضماير صدوركم
فتنالكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شىء .

(يمنون عليك أن أسلموا) أى يعدّون إسلامهم ومتابعتهم لك ونصرتهم إياك
منّة يطلبون منك أجرها ، فقد قالوا جئناك بالائتقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك
بنو فلان وبنو فلان .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المنّ عليه
بما يدعونه من الإسلام فقال :

(قل لا تمنوا على إسلامكم) أى لا تعدوا إسلامكم الذى سميتموه إيماناً منّة على ،
فإن الإسلام هو المنّة التى لا يطلب مؤيها ثواباً لمن أنعم بها عليه ، ومن ثم قال :

(بل الله يمتنّ عليكم أن هذا كم للإيمان إن كنتم صادقين) أى بل الله هو الذى
يمن عليكم ، إذ أمدكم بتوفيقه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين فى إيمانكم .

وفى هذا إيماء إلى أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يوم حنين «يامعشر الأنصار ،
ألم آتكم ضلّالاً فهذا كم الله ؟ وعالة فأغنناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟
قالوا بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل » .

والخلاصة — أن الله تعالى سمى ما كان منهم إسلاماً وخضوعاً لا إيماناً إظهاراً
لكذبهم فى قولهم آمنا ، ثم لما منّوا على رسول الله بما كان منهم قال سبحانه لرسوله :
أيعتدون عليك بما ليس جديراً أن يعتد به من إسلامهم الذى سموه إيماناً وليس
بذلك ؟ بل الله هو الذى يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدّمهم بهديه وتوفيقه .
ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال الخلق فقال :

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) أى إن الله يعلم ماغاب فيهما ، وهو بصير بسركم وعلايتكم ، لا يخفى عليه ما فى ضمائركم .
وفى ذلك رمز إلى أنهم كاذبون فى إيمانهم ، وإعلان للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين بما فى أنفسهم .

خلاصة ماتضمنته السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقسم يخص أمته وهو إما ترك للرذائل وإما تحلية بالفضائل . والقسم الأول هو :

- (١) ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه .
- (٢) الهيبة والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا تتجاوز أصواتهم صوته
- (٣) ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .

- (٤) إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون .
- (٥) إن من نادوه من وراء الحجرات كعُيْنَة بن حِصْن ومن معه أكثرهم لا يعقلون .

- (٦) ذمّ المنّ على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان .
- والقسم الثانى هو :

- (١) ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبت منه وتظهر الحقيقة .
- (٢) إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية حتى تفىء إلى أمر الله .

- (٣) حبيب الله الصلح بين المؤمنين .
- (٤) النهى عن السخرية والمز والتناز .
- (٥) النهى عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة وعن الغيبة والنميمة .
- (٦) الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى ، لأفضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

سورة ق

هي مكية إلا آية ٣٨ مدنية، وعدة آياتها خمس وأربعون، نزلت بعد المرسلات . ومناسبتها لما قبلها - أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقيقياً ، وذلك يقتضى إنكار النبوة وإنكار البعث ، وافتتح هذه السورة بما يتعلق بذلك .

حدث مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ هذه السورة في الركعة الأولى من صلاة الفجر .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي واقد الليثي « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت » .

وأخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام بنة حارثة قالت « ما أخذت (ق) والقرآن المجيد) إلا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » .

وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها في الجامع الكبيرة كالعيدين والجمع ، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَعْزَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

شرح المفردات

المجيد من المجد ، وهو كما قال الراغب: السعة في الكرم من قولهم: مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع ، وُصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية ، زجع بعيد: أى بعث بعد الموت بعيد عن الأوهام ، ماتنقص الأرض: أى ماتاً كل من لحوم موتاهم وعظامهم ، حفيظ: أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، بالحق: أى بالنبوة الثابتة بالمعجزات ، مريح: أى مضطرب من قولهم: مرج الختام في إصبعه إذا قلق من الهزال .

الإيضاح

(ق) تقدم أن قلنا غير مرة إن الحروف المفردة التي جاءت في أوائل السور حروف لتنبيه السامع إلى ما يرد بعدها ، وأكثر ما جاء ذلك إذا ورد بعدها وصف القرآن كما هنا .

(والقرآن المجيد) أقسم الله سبحانه بكتابه الكثير الخير والبركة — إنك أيها الرسول جئتكم منذراً بالبعث ، يدل على ذلك قوله تعالى «يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ — إلى أن قال — لَتَنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ» .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى إنك جئتكم منذراً بالبعث فلم يقبلوا ولم يكتفوا بالشك في أمرك ورد رسالتك ، بل جزموا بنفيها ، وجعلوها من عجائب الأمور التي تستحق الدهشة ، وكثير التأمل والاعتبار .

ثم فسر تعجبهم وفصل محل التعجب وهو إنذاره بالقرآن فقال :

(فقال الكافرون هذا شيء عجيب) أى فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش إذ جاءهم منذر منهم : هذا شيء عجيب أى إن محمداً رجلاً منا برسالة من الله إلينا

أمر عجيب ، هلا أنزل إلينا ملكا فيكون لنا نذيرا ، كما حكى عنهم من قولهم :
« أَبَشِّرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقوله حكاية عنهم « قَالُوا مَا أَتَيْتُمُ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا » .

وبعد أن أظهروا التعجب من رسالته أظهروا استبعاد ما جاء به فقالوا :

(أنذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) أى أحين نموت ونصير ترابا نرجع
كما يقول النذير ؟ إن ذلك الرجوع بعد الموت لبعيد عن الأوهام لا يصدق العقل
وتحمله العادة .

ثم أشار إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه فقال :

(قد علمنا ما تنقص الأرض منهم) أى قد علمنا ما تأنى كل الأرض من لحوم
موتاهم وعظامهم ، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين
صارت ؟ فلا يصعب علينا البعث ولا يستبعد .

ثم أكد علمه بجميع الأشياء فقال :

(وعندنا كتاب حفيظ) أى وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ،
وهذا تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعا علما كاملا يعلم من عنده كتاب حفيظ
يتلقى منه كل شيء ، فيضبط ما يعلم أتم الضبط ويحصيه أكل الإحصاء .

ثم حكى عنهم ما هو أفظع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة الثابتة بالمعجزات
من أول وهلة بلا تدبر ولا تفكر فقال :

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بل كذبوا بالنبوة التى قامت الأدلة على صدقها
وأيدتها المعجزات الباهرة ، وهم إذا كذبوا بها فقد كذبوا بما أنبأ به الرسول من
البعث وغيره ، ولا شك أن هذا الإنكار أعظم جرما وأشد بلية من الإنكار بما جاء
به الرسول ، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله ومن يصطفيه من خلقه من ذوى
النفوس الصافية وأرباب الأرواح العالية .

(فهم فى أمر مرجح) أى فهم فى قلق واضطراب ، فتارة يفنون الرسالة عن البشر ،

وأخرى يزعمون أنها لاتليق إلا بأهل الجاه والرياسة كما ينبى بهذا قولهم : « لَوْلَا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرَّيَتَيْنِ عَظِيمٍ » وثالثة يقولون : إنها سحر أو كهانة إذ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقاويلهم التى تدل على اضطراب فى الأمر وقلق فى الفكر ، فهم لا يدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذى أقض مضاجعهم ، وجعلهم حيارى دهشين ، إلام هم صاثرون ؟ وإلى أى منقلب ينقلبون ؟

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْمِينَا بِهِ بِلَدَةٍ مَوْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

شرح المفردات

بنيناها : أى أحكمنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، وزيناها : أى بالكواكب ، فروج . أى شقوق ، مددناها : أى بسطناها ، رواسى : أى جبلا ثوابت تمنعها من الميد والاضطراب ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى ذى بهجة وحسن ، تبصرة وذكرى : أى تبصيرا وتذكيرا ، منيب : من أناب إذا رجع وخضع ، حب الحصيد : أى حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ، باسقات : أى طويلات ،

والطلع ما ينمو ويصير بلحا ثم رطباً ثم تمراً ، ونضيداً : أى منضود بعضه فوق بعض ،
الخروج : أى من القبور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم استبعدوا البعث فقالوا رجع بعيد — أردف ذلك بالدليل
الذى يدحض كلامهم ، فإن من خلق السماء وزينها بالكواكب ، وبسط الأرض
وجعل فيها رواسى وأنبت فيها صنوف النبات ، وجعل ذلك تذكرة وتبصرة
لأولى الألباب ، ونزل من السماء ماء فأنبت به ناضر الجنان ، والزرع المختلف
الأصناف والألوان ، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقا لعباده ،
وأحيا به الأرض الموات — أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يخرج الناس من قبورهم
بعد بلاءهم وبعد أن يصيروا عظاما ورفاتا ، وينشئهم خلقا آخر فى حياة أخرى وعالم
غير هذا العالم ؟

الإيضاح

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) أى أفلم
ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى —
إلى السماء فوقهم كيف رفعتها بلا عمد ، وزيناها بالكواكب وما لها من فتوق ، فهى
ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا هو رأى الحديث فى عالم السموات ، إذ يقولون
إن هناك عالما لطيفا أرق من الهواء وألطف من كل ما نراه وهو مبدأ كل شئ وأول
كل شئ وهو العالم المسمى بالأمير ، وهذا العالم وإن لم يره الناس فقد عرفوه من
وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فيما
يزيد على ألف ألف سنة ، ونور الشمس (التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها

لو أمكن فى نحو خمس وستين وثلاثمائة سنة) يصل إلينا فى مدة ثمان دقائق وثمانى عشرة ثانية .

فانظر كيف يكون بُعد تلك الكواكب التى تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون ؛ ألا يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شىء موجود وهو الأثير فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لا تقطع سير النور إلى الأرض ولم نره . وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله : « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لا تقطع سير النور إلينا .

وآراء الجوهلة فى كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى وبينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء ، فجاء الكتاب الكريم وعكس هذه القضية وقال لافروج فى السماء أى لا خلاء فى العالم .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج) أى والأرض بسطناها وألقينا فيها جبالات ثابتة لئلا تميد وتضطرب ، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ما حسن منظره ، وراق مخبره .

(تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) أى فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب وادكاره ، فإن رفعت السماء أو زيتها بالكواكب فلاستبصاره ، وإن بسطت الأرض أو أرسيتها بالجبال أو أنبت النبات زينة للأرض فلاعتباره .

ثم شرع يبين كيفية ما ذكر من إنبات كل زوج بهيج فقال :

(ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد) أى ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ، وحبّ الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرها .

(والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد) أى وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منصود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

عن قطبة قال : «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصبح قلما أتى على هذه الآية - وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ - فجعلت أقول ما بسوقها ؟ قال طولها » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه .

ولم يقيد هنا العباد بالإنبات كما قيد به في قوله : « تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » لأن التذكير لا يتكون إلا لمنيب ، والرزق يعم كل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام ، وغيره يأكل كل ثمار كل الأنعام ، ومن ثم لم يخص الرزق بقيد .

(وأحيينا به بلدة ميتاً) أى وأحيينا بذلك الماء الأرض الجديدة التى لا نبات فيها فَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ من كل زوج بهيج .

ثم جعل ماسلف كالدليل على البعث لأنه شبيه به فقال :
(كذلك الخروج) أى ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور .
وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، وعن إحياء الموتي بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق المماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتي لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥) .

شرح المفردات

الرس : البئر التى لم تطو أى لم تبني ، وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكَة : الغيضة الملتفة الشجر ، تبع : هو تبع الحيرى ، والمعنى

عن الأمر. العجز عنه : قال الكسائي تقول أعيت من التعب ، وعيت من العجز
عن الأمر واقطاع الحيلة ، ولبس : أى شك شديد وحيرة واختلاط .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم — أردف ذلك
بذكر المكذبين للرسول من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسليمة لرسوله صلى الله
عليه وسلم وعبرة لهم ، وتنبيهاً إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل ، كذبوا
فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأعلى كلمتهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ
يَنْصُرُهُ » وقال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ .
وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق من خلق السموات والأرض أعقبه بذكر دلائل
الأنفس كما قال : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط .
وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) هدد سبحانه كفار قريش
بما أحله بأشباههم ونظرائهم من المكذبين قبلهم من النقم والعذاب الأليم في الدنيا
والآخرة ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم
التي كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب ، وحق عليهم وعيد ربهم ، ونصر الله
أنبياءه وأعلى كلمتهم وكانت العاقبة للمتقين ، وقد تقدمت هذه القصص في مواضع
متفرقة من الكتاب الكريم .

ثم ذكر ما يؤكده صحة البعث الذى أنكرته الأمم المكذبة فقال :
(أفعمينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد) أى أفأعجزنا ابتداء

الخلق حتى يشكوا في الإعادة ؟ أي إن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل من الابتداء ، فلا حق لهم في تطرق الشبهة إليهم والشك فيه ، كما قال : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » وجاء في الحديث القدسي : « يقول الله تعالى يؤذيني ابن آدم يقول لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الوسوسة : الصوت الخفي ومنه وسواس الخلق ؛ والمراد بها هنا حديث النفس وما يخطر بالبال من شتى الشئون ، وحبل الوريد : عرق كبير في العنق ، وللإنسان وريدان مكنتفان بصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالوتين يردان من الرأس إليه ، وقعيد : بمعنى مقاعد كالجلوس بمعنى الجالس ، والرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ، فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال ، عتيد : أي مهيا لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر ، سكرة الموت : شدته ، بالحق : أي بحقيقة

الحال ، تحيد : أى تميل وتعدل ، يوم الوعيد : أى يوم إنجاز الوعيد ، السائق والشهيد : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر : يشهد عليها بعملها ، والغطاء : الحجاب المغطى لأُمور المعاد ، وهو الغفلة والانهماك فى الذات وقصر النظر عليها ، حديد : أى نافذ ، نزوال المانع للإبصار .

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث بقوله : أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ — أردف ذلك بدليل آخر على إمكانه وهو علمه بما فى صدورهم وعدم خفاء شئ من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ما جاء به الدين حق لاشك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعهما ملكان أحدهما سائق لها إلى الحشر والثانى شهيد عليها ، وأن الخزنة سيقولون لأهل النار : لقد كنتم فى غفلة عن حلول هذا اليوم الذى توفى كل نفس جزاء ما عملت ، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة فأبصرتم عاقبة أمركم . .

الإيضاح

(واقعد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) أى إنه تعالى قادر على بعث الإنسان ، لأنه خالقه وعالم بجميع أموره حتى إنه ليعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر ولا عقاب على حديث النفس ، وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تفعل » . (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم به وبخفيات أحواله لا يخفى علينا شئ من أمره ، من علمكم بحبل الوريد ، لأن العرق تحجبه أجزاء من اللحم ، وعلم الله لا يحجب عنه شئ .

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » .

قال القشيري في هذه الآية : هيبة وفرع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم .

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال :

(إذ يتلقى المتلقيان) أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقن الحفيظان ما يلفظ به ، مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه .

(عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد ومجالس له يترصد ما يقول ويعمل ، فالذى عن اليمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات .

قال الحسن وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عملك : أحدهما عن يمينك ويكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

ثم ذكر عملهما واستعدادهما لأدائه فقال :

(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى لا يلفظ بكلمة من فيه إلا لديه ملك حاضر معه مراقب لأعماله ، يكتب ما فيه ثوابه أو عقابه .

قال الحسن البصري وتلا هذه الآية (عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ)
يا بن آدم بسطت لك صحيفة ، وكل به ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك ، فأعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مات طويت صحيفتك وجعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » ثم قال : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وروى أبو أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرة ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

والحكمة في هذا أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، بل خلقهم لتربيتهم وتهذيبهم فكل ألم فهو لرقى النفس ، والعالم المادى من طبعه أن يكون نفعه أكثر من ضره ، والله تعالى خلقنا لغاية شريفة لنا ، والحسنات هى الأصل والسيئات عارضة ؛ كما أن المنافع فى الطبيعة هى الأصل والمضار عارضة ، فالتار خلقت لنفعه ، والماء لنفعه ، والهواء لنفعه ، فإذا أحرق ثوب الناسك ، أو أغرق رب صبية لاعاثل لهم ، فهذا عارض ، والأصل فى ذلك المنافع ، وهكذا خلق نوع الإنسان للخير ، والشر عارض ، ولفعل الحسنات ، والسيئات عارضة .

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت وحين قيام الساعة فقال :

(وجاءت سكرة الموت بالحق) أى وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذى كنت تتمترى فيه ، وأن البعث لا شك فيه .

(ذلك ما كنتم منه تحيد) أى ذلك الحق الذى كنتم تفر منه قد جاءك ، فلا تحيد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص .

ولما ثقل أبو بكر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف رضى الله عنه عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى :
« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .

وفى الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق
عن وجهه ويقول : سبحان الله ، إن للموت لسكرات » .

(ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد) أى ونفخ فى الصور نفخة البعث ، وذلك
الزمان العظيم الأهوال هو اليوم الذى أوعده الله الكفار أن يعذبهم فيه .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وصاحب القرن
قد التزم القرن وحى جهنمه وانتظر أن يؤذن له ؟ قالوا يارسول الله ماذا تقول ؟ قال :
قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى وجاءت فى هذا اليوم كل نفس
ربها ومعها سائق يسوقها إلى الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من
خير أو شر .

(لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)
أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة من هذا الذى عاينت من الأهوال والشدائد ،
فجلينا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيته وعاینته ، فزال عنك الغفلة .

وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غطى به الجسد كله ، أو غشاوة غشى بها عينيه
فلا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر
مالم يكن يبصره من الحق .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي (٢٣) أَتَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ
بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ نَقُولُ
لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

شرح المفردات

القرين : هو الملك الموكل بالمرء ، عتيد : أى معدّ مُحضّر ، عنيّد : أى مبالغ
في العناد وترك الاقنياد للحق ، مناع للخير: أى كثير المنع للمال في الحقوق المفروضة
عليه، معتد : أى متجاوز للحق ظالم ، مريب: أى شكّ في الله وفي دينه ، القرين هنا :
الشيطان المقيض له ، بعيد : أى من الحق ، لا تختصموا لدى : أى لا يجادل بعضهم
بعضاً عندي ، بالوعيد : أى على الطفيلان في دار الدنيا في كتبى وعلى السنة رسلى ،
مايبدل القول لدى : أى لا يقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى ،
مزيد : زيادة .

الإيضاح

(وقال قرينه هذا مالىّ عتيد) أى وقال الملك الموكل به : هذا الذى وكلتنى به
من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله .

(ألقيا في جهنم كل كفار عنيّد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله
إلهاً آخر) أى قال تعالى للسائق والشهيد : ألقيا في جهنم كل من كفر بالله وكذب
بالحق وعارضه بالباطل ، ومنع الحقوق المفروضة عليه ، واعتدى على الناس بلسانه
بالبداء والفحش ، وييده بالسطوة والبطش ظلماً ، وشكّ في وحدانية الله وقدرته على
مابشاء ، وأشرك به فعبّد معه معبوداً سواه من خلقه .

ثم كرر ما سلف تؤكد فقال :

(فألقياه في العذاب الشديد) أى فألقياه في النار ذات العذاب الشديد .
 (قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد) أى فقال الكافر
 معتذرا : رب إن قريني من الشياطين أطفاني ، فقال الشيطان المقيض له : ربنا
 ما أطغيته ، ولكن كان طبعه وديده الضلال والبعث عن الحق ، فسار على النهج
 الذي يشاكل أخلاقه .

وخلاصة ذلك — إنه في ضلال بعيد المدى لا يرجع عنه إلى الحق .
 ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » .

(قال لا تختصموا لديّ وقد قدمت إليكم بالوعيد) أى قال عز اسمه للإنسى
 وقرينه من الجن حين اختصما ، فقال الإنسى : رب إن هذا أضلني عن الذكر بعد
 إذ جاءني ، وقال الشيطان : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد عن منهج
 الحق — لا تختصموا عندي ، فقد أعذرت إليكم على السنة الرسل وأنزلت الكتب ،
 وقامت عليكم الحجج .

والخلاصة — إنهم اعتذروا بغير ما يصلح أن يكون عذرا ، فأبطل الله حججهم
 وردّ عليهم قولهم .

(ما يبدل القول لديّ) أى لا يغير قضائي الذي قضيته ، ووعيدي الذي أوعدته
 بتخليد الكفار في النار ومجازاة العصاة على قدر ما يستحقون .
 (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب أحدا بغير جرم أجرمه ، ولا ذنب جناه ،
 ولا أعذب أحدا مكان أحد .

ثم ذكر مكان حلول الوعيد فقال :

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت ونقول هل من مزيد) أى وأنذر قومك يوم
 نقول لجهنم هل امتلأت بما ألقى إليك فوجا بعد فوج ؟ فنقول لا مزيد بعد ذلك .

وفي هذا بيان لأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها ، يطرح فيها من الجنة والناس جماعات بعد جماعات حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة .

وهذا السؤال والجواب جرى بهما للتمثيل وتصوير المعنى بإبرازه في لباس المحسوس ليتضح أمره .

روى عن ابن عباس أنه قال : سبقت كلمته : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سبق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شيء فتقول : ألسنت قد أقسمت لثلاثي ؟ فيضع قدمه عليها فيقول : هل امتلأت ؟ فتقول : قطّ قطّ (كفى كفى) قد امتلأت وليس من مزيد .

وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِمُتَّقِينَ غَيْرِ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥) .

شرح المفردات

أزلفت : أى أدنيت وقربت ، غير بعيد : أى فى مكان غير بعيد منهم بل هو بمرأى منهم ومسمع ، هذا ما توعدون : أى هذا هو الثواب الذى وعدتم به على السنة الرسل ، أواب : أى رجاع عن المعصية إلى الطاعة ، حفيظ : أى حافظ لحدود الله وشرائعه ، خشى الرحمن بالغيب : أى خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ، منيب : أى مخلص مقبل على طاعة الله ، بسلام : أى سالمين من العذاب وزوال النعم ، الخلود : أى فى الجنة إذ لا موت فيها ، مزيد : أى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر وردّ القرين عليه ، وأن الله سبحانه نهاهم عن الاختصاص لديه ، لأنه لافائدة فيه بعد أن أوعدهم على السنة رسله — أردف هذا بذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم ، وتلج لمراها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على السنة الأنبياء والرسل ، وهو دائم لا يفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

الإيضاح

(وأزلت الجنة غير بعيد) أى وأدنت الجنة للذين اتقوا ربهم واجتنبوا معاصيه ، بحيث تكون بمرأى العين منهم ، إكراماً لهم ، واطمئناناً لنفوسهم ، فيرون ما أعد لهم من نعيم وحبور ، ولذة وسرور ، لا يفاد له ولا فناء .
(هذا ما توعدون) أى وتقول لهم الملائكة : هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم على السنة رسله ، وجاءت به كتبه ، ثم بين المستحق لهذا النعيم فقال :
(لكل أوتاب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أى هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم ويلقون الله بقلوب متنية إليه ، خاضعة له .

(ادخلوها بسلام) أى وتقول لهم الملائكة تكملة لهم : ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهموم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أتم تحزنون .
ثم يبشرون ويقال لهم :

(ذلك يوم الخلود) أى فاطمئنوا وقرؤا عينا ، فهذا يوم الخلود الذى لا موت بعده ، ولا ظمن ولا رحيل .

ثم زاد في البشرى فقال :

(لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) أى لهم إجابة لسؤلهم كل ما يشتهون ،
ثم زد لهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدرك بحولهم .
ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِنْ مَّخِصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُتُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ
السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ نَشَقُّ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرُ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ
مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

شرح المفردات

القرن : الجيل من الناس ، بطشاً : أى قوة ، فنقَّبوا في البلاد : أى ساروا فيها
يبتغون الأرزاق والمكاسب ، ويقال لمن طوف في الأرض نقَّب فيها .
قال امرؤ القيس :

فقد نَقَّبْتُ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالْإِيَابِ

محيص : أى مهرب ، لذكرى : أى لعبرة ، قلب : أى لب يعنى به ، أو ألقى
السمع : أى أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي ، شهيد : أى حاضر فهو من الشهود
بمعنى الحضور ، والمراد به القطن ، إذ غيره كأنه غائب ، لغوب : أى تعب ، سبح
بحمد ربك : أى نزهه عن كل نقص ، أدبار السجود : أى أعقاب الصلوات ، واحدها
دبر (بضم فسكون وبضميتين) واستمع : أى لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ،
يوم ينادى المنادى : أى يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى ، من مكان قريب :
أى بحيث لا ينفخ الصوت على أحد ، والمنادى هو جبريل عليه السلام على ما ورد
في الآثار ، يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ،
والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، والصيحة : النفخة الثانية .
بالحق : أى بالبعث والجزاء ، يوم الخروج : أى من القبور ، تشقق : أى تتصدع ،
يجار : أى بمسيطر ومسلط ، إنما أنت داع ومنذر .

المعنى الجملى

بعد أن أنذرهم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أنذرهم
بما يعجل لهم في الدنيا من ضرور العذاب ، سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين
قبلهم ممن ساروا في البلاد طولا وعرضا وكانوا ذوى قوة وأيد ، ولم يغن ذلك عنهم
من الله شيئا ، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم ، ليكون أمرهم
بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ،
ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لبّ واعٍ سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل
مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض في ستة أطوار
مختلفة وما أصابه تعب ولا لغوب كما قال : « أَفَقَيْنَا بِأَنَّا خَلَقَ الْأَوَّلَ ؟ » ثم أمره
بالصبر على ما يقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فها هو ذا
اقترب يوم البعث والنشور ، وسمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور ، وتشققت

الأرض سراعاً وخرج الناس من القبور ، وما ذلك بالصعب على رب العالمين ، خالق السموات والأرضين ، وإنا لنعلم مايقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزهم الإيمان بهذا اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع العظة إلا ذوى الأحلام الراجحة ، والقلوب الواعية .

الإيضاح

(وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص ؟) أى وكثير من الأمم التى قبلك أهلكناها وكانوا أشد منهم بطشا وأكثر قوة كعاد وثمود وتبع ، فتقلبوا فى البلاد وسلكوا كل طريق ابتغاء للرزق ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأ حين حُمَّ القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

وبعد أن ذكر فى هذه السورة وما قبلها بارع الحكم ونفائس المعارف الإلهية جملة وتفصيلاً ، فن أدب للأمة مع نبيها ، إلى أدب للأمة بعضها مع بعض ، إلى حفظ للسلام بين الناس والصلح بينهم ، وصيانة للسان من الهزؤ والسخرية والهمز واللغز ، ثم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وبذا يحل التواصل محل التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، ويخيم الأمن فى ربوع البلاد ، أبان أن تلك الزواجر لا ينفع بها إلا ذوى الأبواب فقال :

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى مايقال له . ثم أعقب ذلك بذكر ما هو كالدليل على ما سلف فقال :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى قسمنا بربك إنا خلقنا السموات والأرض وملأناها بالعجائب فى ستة أطوار مختلفة

وما مسنا تعب ولا إعياء ، ولا تزال عجائبنا تترى كل يوم ، فانظروا إليها وتأملوا في محاسنها فهي لا تحصى ، ولا يبلغها الاستقصا ، وكذبوا اليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أو لها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، فنحن لا يمسن الغوب ولا إعياء .

ونحو الآية قوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ بِخَلْقَيْنٍ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(فاصبر على ما يقولون) أى فاصبر على ما يقوله المشركون في شأن البعث من الأباطيل التي لا مستند لها إلا الاستبعاد ، فإن من خلق العالم في تلك المدة اليسيرة بلا إعياء — قادر على بعثهم وجزائهم على ما قدموا من الحسنات والسيئات .

(وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) أى ونزه ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه ، حامداً له أنعمه عليك ، وقت الفجر ووقت العصر وبعض الليل ، وفي أعقاب الصلوات .

وقال ابن عباس : الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل الغروب الظهر والعصر ، ومن الليل العشاءان ، وأدبار السجود التوافل بعد الفرائض .

روى البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح في أدبار الصلوات كلها ، يعنى قوله : « وَأَدْبَارَ السُّجُودِ » وفي حديث مسلم تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين ، والتحميد بثلاث وثلاثين ، والتكبير بثلاث وثلاثين ، وتنام المائة لإله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ، دُبُرُ كل صلاة .

(واستمع) أيها الرسول لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفي إبهام أمره ، تعظيم لشأنه .

ثم بين ذلك الخبر وزمانه بقوله :

(يوم ينادى المنادى من مكان قريب) أى يوم ينادى المنادى من موضع قريب

فيصل نداؤه إلى كل الخلائق على السوية ، ويقول : هلموا إلى الحساب ، فيخرجون من قبورهم ويقبلون كأنهم جراد منتشر .

ثم زاد الأمر تفصيلا فقال :

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) أى يوم يسمعون النفخة الثانية منذرة بالبعث والجزاء على ما قدموا من الأعمال .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

(ذلك يوم الخروج) أى هذا اليوم هو يوم الخروج من القبور .

ثم غلص ما تقدم من أول السورة إلى هنا فقال :

(إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) أى إنا نحن نحيي في الدنيا ونميت فيها حين انقضاء الآجال ، وإلينا الرجوع للحساب والجزاء في الآخرة .

(يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) أى إلينا المصير في ذلك اليوم الذى تتصدع فيه الأرض فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة ، وذلك جمع بين علينا لاعسر فيه ولا مشقة .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(نحن أعلم بما يقولون) أى نحن أعلم بما يقولون من فريتهم على ربهم وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت .

(وما أنت عليهم بحيار) أى وما أنت بمسلط عليهم تقسرم على الإيمان وتسيرهم على ما تهوى وتريد ، إنما أنت نذير ، وما عليك إلا التبليغ وعلينا الحساب .

ثم أكد أنه مذكّر لأمسيطر وأن التذكير لا ينفع إلا من خشى ربه فقال :

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذى

أنزله عليك من يخاف وعيدى الذى أوعدته من عصائى وخالف أمرى ، أى بلغ رسالة ربك ، وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله وشديد عذابه .

ونحو الآية قوله : « فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . نَسْتَ عَلَيْهِمْ مُبْسِطِرٌ »
 وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .
 وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ،
 يا برّ يا رحيم .

موجز لما تضمنته السورة الكريمة من الموضوعات

- (١) إنكار المشركين للنبوة والبعث .
- (٢) الحث على النظر في السماء وزيتها وبهجة بنائها ، وفي الأرض وجبالها
 الشاخات ، وزروعها النضرات ، وأمطارها الثجاجات .
- (٣) العبرة بالدول الهالكات كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وما استحقوا
 من وعيد وعذاب .
- (٤) تقرير الإنسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، في مجلس
 أنسه ، وعند إخوته ، وفي خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ،
 يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ،
 حوسب على كل قول وكل عمل ، وشهدت عليه الشهود وكُشفت له الحجب .
- (٥) إنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .
- (٦) إن القرآن عظة وذكري لمن كان له قلب واع يستمع ما يلقى إليه .
- (٧) تسلية رسوله على ما يقول المشركون من إنكار البعث وتهديدهم على ذلك .
- (٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .
- (٩) أمر الرسول بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .

سورة الذاريات

هي مكية وعدة آياتها ستون ، نزلت بعد الأحقاف ، ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه قد ذكر في السورة السابقة البعث والجزاء والجنة والنار ، وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .

(٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)
فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُتَخَلِّفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
أَفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ
أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ
هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) .

شرح المفردات

الذاريات : الرياح تذرُو التراب وغيره ، أى تفرقه ، والوقر : حمل البعير وجمعه أوقار : أى أثقال ، والحاملات وقرًا : هي الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، واليسر : السهولة ، والجاريات يسرًا : هي الرياح الجارية في مهابها بسهولة ، والمقسمات أمرًا : هي الرياح التي تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، وما توعدون : هو البعث

والحشر للحساب والجزاء ، والدين : الجزاء ، وواقع : أى حاصل ، والحبك : الطرق واحدها حبيكة ، مختلف : أى متناقض مضطرب فى شأن الله ، فبينما تقولون إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول فتارة تقولون إنه مجنون ، وتارة تقولون إنه ساحر ، وفى شأن الحشر فتارة تقولون لاحشر ولا بعث ، وأخرى تقولون : الأصنام شفعاءونا عند الله يوم القيامة ، يؤفك عنه من أفك : أى يصرف عن القول المختلف : أى بسببه من صرف عن الإيمان ، والخراصون : أى الكذابين من أصحاب القول المختلف ، فى غمرة : أى فى جهل يشملهم ويغمرهم شمول الماء الغامر ، ساهون : أى غافلون عما أمروا به ، أيان يوم الدين : أى متى يوم الجزاء : أى متى حصوله ، يفتنون : أى يحرقون ، وأصل الفتن : إذابة الجوهر ليعرف غشه فاستعمل فى الإحراق والتعذيب ، فتنتم : أى عذابكم المعد لكم .

المعنى الجملى

هاهنا أمور يحمل بك أن تفهمها :

(١) بعد أن بين الحشر بدلائله وقال : ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ، ثم أصرروا على ذلك غاية الإصرار لم يبق إلا اليمين فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا — إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » .

(٢) إن الإيمان الذى حلف بها الله تعالى فى كتابه كلها دلائل على قدرته أخرجها فى صورة الأيمان ، كما يقول القائل للنعم عليه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك ، فيذكر النعم وهى سبب لدوام الشكر ويسلك بها مسلك القسم ، وجاءت الآية هكذا ، مصدرة بالقسم ، لأن المتكلم إذا بدأ كلامه به علم السامع أن هاهنا كلاماً عظيماً يجب أن يصفى إليه ، فإذا وجهه هم لسماعه خرج له الدليل والبرهان المتين فى صورة اليمين .

(٣) في السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف المقطعة كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة : الوجدانية والرسالة والحشر وهي التي يتم بها الإيمان ، فأقسم لإثبات الوجدانية في سورة الصافات فقال : « إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ » وأقسم في سورتي النجم والضحى لإثبات الرسالة فقال في الأولى : « وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ » وقال في الثانية « وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » وأقسم في سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء .

(٤) في السورة التي أقسم فيها لإثبات الوجدانية أقسم بالسكانت فقال : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا » ، وفي السور التي أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا - وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا - وَالنَّازِعَاتِ غُرَفًا - وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وهو بالحركة أليق .

(٥) كانت العرب تحترز عن الإيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبي صلى الله عليه وسلم على سننهم ، فحلف بكل شريف ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتا ، وكانوا يعلمون أنه لا يحلف إلا صادقا وإلا أصابه شؤم الإيمان ، وناله المكروه في بعض الأيمان .

الإيضاح

(والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرأ ، فالجاريات يسرا ، فالقسمات أمراً . إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) أقسم سبحانه بالرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها في الهواء ييسر ومهولة ، وتقسيما الأمطار ، إن هذا البعث لحاصل ، وإن هذا الجزاء لا بد منه في ذلك اليوم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأفعالها ، لما يشاهدون من آثارها ونفعها العظيم لهم فهي التي ترسل الأمطار مبشرات برحمته ، ومنها تسقي الأنعام والزروع وتنبت

البساتين والجنات وتجعل الأرض القفر مروجاً ، وعليها يعتمدون في معاشهم ،
فآثارها واضحة أمامهم ، ولا عجب أن تكون لها المنزلة العظمى في نفوسهم .

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية ، فإن ما على الأرض منجذب إليها ،
واقع عليها ، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفاً عجيباً تابعاً لسير الكواكب ،
فبجريها وجرى الشمس تؤثر في أرضنا وهوائها بنظام محكم ، فما ذرت الرياح
التراب ، ولا حملت السحاب ، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكية
منتظمة ، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة .

(والسما ذات الحبك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك) أى
والسما ذات الجمال والبهاء ، والحسن والاستواء ، إنكم أيها المشركون المكذبون
للرسول ، لفي قول مختلف مضطرب ، لا يلتزم ولا يجتمع ، ولا يروج إلا على من هو
ضالٌّ في نفسه ، لأنه قول باطل يُصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله
صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

والخلاصة — قسما بالسما وزينتها وجمالها ، إن أمركم في شأن محمد وكتابه
لمعجب عاجب ، فهو متناقض مضطرب ، فحيناً تقولون هو شاعر ، وحيناً آخر تقولون
هو ساحر ، ومرة ثالثة تقولون هو مجنون ، وبينما تقولون عن القرآن إنه سحر إذا
بكم تقولون إنه شعر أو إنه كهانة .

(قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون) أى قتل الكذابين من أصحاب
القول المختلف الذين هم في جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به في عرف التخاطب لعنهم ، إذ من لعنه الله فهو بمنزلة
المهلك المقتول ، وقد جاء في القاموس : قتل الإنسان مأ كفره : أى لعن ، وقتلهم
الله ، أى لعنهم .

(يسألون أيان يوم الدين) أى يسألك المشركون استهزاء فيقولون : متى
يوم الجزاء ، وقد كان لهم من أنفسهم لو تدبروا ما يدفعهم إلى الاعتقاد بمجيء هذا

اليوم ، فإن أحداً منهم لا يترك عبده وأجراه في عمل دون أن يحاسبهم وينظر في أحوالهم ، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم ، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبدة الذين أبدع لهم هذا الكون وهياً لهم كل ما يحتاجون إليه - سدى ويوجد لهم غيباً . ثم أجاب عن هذا السؤال وذكر أنه يكون يوم القيامة فقال :
(يوم هم على النار يفتنون) أى يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار وتقول لهم الخزنة :

(ذوقوا فتنةكم هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) قُورَبُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

تفسير المفردات

في جنات وعيون: أى في بساتين تجرى من تحتها الأنهار ، محسنين: أى مجودين لأعمالهم ، والهجوع: النوم ليلاً ، والهجمة: النوم الخفيفة ، والأسحار: واحد سحر وهو السدس الأخير من الليل ، حق: أى نصيب وأفر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم وإشفاقاً على عباده ، والسائل: هو المستجدي الطالب العطاء ، والمحروم: هو المتعفف

الذى يحسبه الجاهل غنيا فيعزّم الصدقة من أكثر الناس ، آيات : أى دلائل على قدرته تعالى من وجود المعادن والنبات والحيوان ، والدحو في بعض المواضع والارتفاع في بعضها الآخر عن الماء ، واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص ، الموقنين : أى الموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، وما توعدون أى والذي توعده من خير أو شر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المغترين الذين أنكروا يوم الدين ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعبدوا مع الله غيره من وثن أو صنم - أردف ذلك بذكر حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء إحسانهم في أعمالهم ، وقيامهم بالليل للصلاة ، والاستغفار بالأسحار ، وإنفاقهم أموالهم للفقراء والمساكين ، ونظرهم في دلائل التوحيد التي في الآفاق والأنفس ، وتفكيرهم في ملكوت السموات والأرض مصدقين قوله تعالى : « سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

ثم أقسم رب السماء والأرض إن ماتوعدون من البعث والجزاء حق لاشك فيه ، كما لاشك في تطلقكم حين تطلقون .

الإيضاح

(إن المتقين في جنات وعيون : آخذين ما آتاهم ربهم) أى إن الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه ، في بساتين وحنات تجري من تحتها الأنهار ، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه ما يرضيهم ويفوق ما كانوا يؤملون .
ثم ذكر الثمن الذى دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم فقال :
(إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى إنهم كانوا في دار الدنيا يفعلون صالح

الأعمال خشية من ربهم وطلباً لرضاء ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التى فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون .

ونحو الآية قوله : « كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .
ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال :

(كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) أى كانوا ينامون القليل من الليل ويتعبدون فى معظمه ، قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها شيئاً إما من أولها أو من وسطها ، وقال الحسن البصرى : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجدوا إلى السحر . وعن أنس قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

(وبالأَسْحَارِ هم يستغفرون) أى فهم يحيون الليل متعبدين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم .

ولما ذكر أنهم يقيمون الصلاة ثنى بوصفهم بأداء الزكاة والبر بالفقراء فقال :
(وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أى وجعلوا فى أموالهم جزءاً معيناً ميزوه وعزلوه للطالب المحتاج ، والمتعفف الذى لا يجد ما يغييه ، ولا يسأل الناس ، ولا يفتنون إليه ليتصدقوا عليه .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمرتان والأُكَّةُ والأُكَّةُتان ، قيل فمن المسكين ؟ » قال الذى ليس له ما يغييه ، ولا يُعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم » .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بين أنه قد لاحت لهم الأدلة الأرضية والسمائية التى بها أختبوا إلى ربهم وأنابوا إليه فقال :

(وفى الأرض آيات للموقنين) أى وفى الأرض دلائل على وجود الخالق وعظيم

قدرته ، استبانت لمن فكر وتدبر في هذا الكون وبديع صنعه ، مما يشاهد من صنوف النبات والحيوان ، والمهاد والجبال ، والقفار والبحار ؛ إلى نحو أولئك مما بهر الخلق كما قال : « وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَايِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ » .

فالموقنون كلما رأوا آية عرفوا وجه تأويلها فازدادوا إيقانا ، وخصهم بالذكر لأنهم هم الذين يعترفون بذلك ويتدبرون فيه فينتفعون به .

(وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟) أى أفلا تنظرون نظر من يعتبر في اختلاف الأسنة والألوان ، والتفاوت في العقول والأفهام ، واختلاف الأعضاء ، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحار فيه اللب ، ويدهش منه العقل ؟

وخلاصة ماسلف — إن الله تعالى وصف المتقين بأنهم مجدون في العبادة البدنية وفي بذل المال للمستحقين من ذوى الحاجة والبائسين ، والإيمان بالله والعلم بقدرته بالنظر في الآفاق والأفئس .

(وفي السماء رزقكم وما توعدون) أى وفي السماء أسباب رزقكم من النيرين (الشمس والقمر) والكواكب والمطالع والمغارب التى بها تختلف الفصول فتنبت الأرض أنواع النبات وتسقى بماء الأمطار التى تحملها السحب وتسوقها الرياح لأسباب فلكية وطبيعية أوضحها علماء الفلك وعلماء الطبيعة . وكذلك ماتوعدون من خير وشر ، قاله مجاهد .

ثم أقسم ربنا بعزته وجلاله إن البعث لحق فقال :

(فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون) أقسم ربنا جلّت قدرته بجلاله وكبريائه : إن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء حق لا مرية فيه ، فلا تشكوا فيه كما لا تشكون في نطقكم حين تنطقون ، وهذا كما يقول الناس : إن هذا الحق كما أنك ترى وتسمع .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » .
 عن الأصمعى قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود فقال
 من الرجل ؟ قلت من بنى أصم ، قال من أين أقبلت ، قات من موضع يتلى فيه
 كلام الرحمن ، قال : اتل على فتلوت والذاريات فلما بلغت : وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ
 قال حسبك ، فقام إلى ناقته فنجرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى ،
 فلما حجبت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق فالتفت
 فإذا بالأعرابى قد نحل واصفر فسلم على واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال
 لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت فَوَرَبِّ السَّمَاءِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ . فصاح وقال : ياسبحان الله ، من ذا الذى أغضب الجليل حتى
 حلف ، لم يصدقوه حتى حلف (قالها ثلاثاً) وخرجت معها نفسه .

وإنما قصصت عليك هذا القصص لما فيه من أدب بارع وظرف وحسن فهم
 من ذلك الأعرابى لكتاب الله ، ولك بعد ذلك أن تصدقه أو تشكك فيه ، فكم
 للأصمعى من مثله ، فهو الأديب البارع ، والراوية الحافظ ، فلا يعجزه أن يصنعه
 ويصنع أمثاله .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
 فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ
 سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا
 لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بِنِعْلَامٍ عَلِيمٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
 وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ
 الْعَلِيمُ (٣٠)

شرح المفردات

الضيف : لفظ يستعمل للواحد والكثير ، المتكرمين : أى عند إبراهيم
 إذ خدمهم هو وزوجه وعجل لهم القرى وأجلسهم فى أكرم موضع ، قوم منكرون :
 أى قوم لا عهد لنا بكم من قبل ، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام للتعرف بهم
 كما تقول لمن لقيته وسلم عليك : أنا لا أعرفك ، تريد عرّف لى نفسك وصفها ،
 فراغ إلى أهله : أى ذهب إليهم على خفية من ضيفه ، سمين : أى ممتلى بالشحم
 واللحم ، فقر به إليهم : أى وضعه لديهم ، فأوجس منهم خيفة : أى أضمر فى نفسه
 الخوف منهم ، امرأته هى سارة لما سمعت بشارتهم له ، صرّة : أى صيحة ، فصكت
 وجهها : أى ضربت بيدها على جبهتها وقالت يا ويلتنا ، عجوز عقيم : أى أنا كبيرة
 السن لا ألد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم ربهم بعزته أنه كأن
 لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع
 فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصروا على كفرهم ولم يُقلعوا عما هم فيه ، فسيحل
 بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبى صلى الله
 عليه وسلم على سننه كما قال تعالى : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا
 وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ولأن العرب كانت تجله
 وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأنى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخياً لشأن الحديث كما تقول مخاطبك هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيهها لأنظاره حتى يصغى إليه ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخبر لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة ، وتنبيهها إلى أن الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحي .

الإيضاح

(هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلام ؟) أى هل عندك نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه وهم ذاهبون في طريقهم إلى قوم لوط ، فسلموا عليه فرد عليهم التحية بأحسن منها .

ثم أراد أن يتعرف بهم فقال :

(قوم منكرون) أى إنكم قوم لاعد لنا بكم من قبل فعرفوني أنفسكم - من أتم ؟

واستظهر بعض العلماء أن هذه مقالة أسرها في نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك ، لأن في خطاب الضيف بنحو ذلك إيمحاشه ، إلى أنه لو كان أراد ذلك لكشفوا له أحوالهم ، ولم يتصد لمقدمات الضيافة ، ثم ذكر أنه أسرع في قرى ضيوفه فقال :

(فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم) أى فذهب خفية مستعراً وقدم لضيوفه عجلاً سميناً أنضجه شيئاً ، كما جاء في سورة هود « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى على الرصف .

(قال ألا تأكلون ؟) أى قال مستحثاً لهم على الأكل : ألا تأكلون ؟ وفي هذا تلطف منه في العبارة وعرض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ،

إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله وهو عجل فتي مشوى ووضعه بين أيديهم ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتلطف في العرض فقال :
أَلَا تَأْكُلُونَ ؟

(فأوجس منهم خيفة) أى فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضمر في نفسه الخوف منهم ، ظننا منه أن امتناعهم إنما كان لشراً يريدونه ، فإن أكل الضيف أمانة ودليل على سروره وانشراح صدره ، وللطعام حرمة ، وفي الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن ، وقد جاء في سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

ثم ذكر أنهم طمأنوه حينئذ فقال :

(قالوا لا تخف) منا إنا رسل ربك ، وجاء في الآية الأخرى : « قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُّوطٍ » .

(وبشروه بسلام عليم) أى فبشروه بإسحاق بن سارة كما جاء في سورة هود : « فَبَشِّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » وجاءت البشارة بذكر لأنه أسمر للنفس ، وأقر للعين ، ووصفه بالعلم لأنه الصفة التي يمتاز بها الإنسان الكامل ، لا الصورة الجميلة ولا القوة ولا نحوها .

ثم أخبر عما حدث من امرأته حينئذ فقال :

(فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أى فأقبلت امرأته سارة حين سمعت بشارتهم (كانت في ناحية من البيت تنظر إليهم) وهى تصرخ صرخة عظيمة وضربت بيديها على جبينها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ وجاء في الآية الأخرى : « قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » فأجابوها عما قالت :

(قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أى قالوا لها : مثل الذى أخبرناك به قال ربك ، فنحن نخبرك عن الله ، والله قادر على ما تستبعدين ، وهو الحكيم فى فعله ، العليم الذى لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء .

والخلاصة — إنها استبعدت الولادة لسببين : كبر السن والعقم ، وقد كانت لاتلد فى عتفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست ، فأجدرُ بها الآن ألا تلد ، فكأنها قالت : ليتكم دعوتكم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات كما يقول الداعى : أعطاك الله مالا ورزقك ولدا ، فردوا عليها بأن هذا ليس منا بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى .

قد تم ما أردنا تصنيفه فى تفسير هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى اليوم العاشر من شهر ربيع الثانى من سنة خمس وستين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

| المبحث | الصفحة |
|--|--------|
| ٤ القرآن الكريم من عند الله ، لامن عند محمد . | ٤ |
| ٩ الرد على المشركين في طعنهم في النبوة . | ٩ |
| ١١ ماينسب إلى بعض الأولياء من علمهم بشئون الغيب فهو فرية على الله . | ١١ |
| ١٤ إسلام عبد الله بن سلام وحديثه مع قومه اليهود . | ١٤ |
| ١٥ الرد على المشركين في أن القرآن ليس مفترى . | ١٥ |
| ١٧ الوصية بالوالدين . | ١٧ |
| ١٨ حوار بين عليّ وعثمان في أقل مدة الحمل . | ١٨ |
| ١٩ لم يبعث الله نبياً قبل الأربعين إلا ابني الخالة عيسى ويحيى . | ١٩ |
| ٢٠ الدعاء الذي كان يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه في التشهد . | ٢٠ |
| ٢٣ خطبة مروان في المسجد دعاية ليزيد بن معاوية وردّ عبد الرحمن ابن أبي بكر عليه . | ٢٣ |
| ٢٦ غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى على الحسن والحسين قُلبتين من فضة . | ٢٦ |
| ٣١ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح يدعو بدعاء خاص . | ٣١ |
| ٣٤ استماع الجن للقرآن . | ٣٤ |
| ٣٥ لادليل من العقل على عالمي : الملائكة والجن ، بل الدليل من السمع وأخبار الأنبياء . | ٣٥ |

| الصفحة | المبحث |
|--------|--|
| ٣٧ | ورد أن الجن استمعت القرآن مرآت كثيرة . |
| ٤١ | ضرب القرآن للأمثال . |
| ٤٩ | الحرب ترقى الصناعات ، وتوقظ الشعور ، وتزيد عدد الأمم . |
| ٥٠ | سيأتى يوم تسعد فيه الأمم بسعادة أعدائها . |
| ٥٢ | يعرف أهل الجنة منازلهم فيها كما يعرفون منازلهم فى الدنيا . |
| ٥٦ | لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً التفت إليها وقال : أنت أحب بلاد الله إلى ، أنت أحب بلاد الله إلى . |
| ٥٨ | صفة الجنة كما وصفها القرآن . |
| ٦٣ | فى الحديث : « إنى أستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » . |
| ٦٤ | ما كان يقول المنافقون حين نزول آيات الجهاد ؟ . |
| ٧٠ | مألاة المنافقين لليهود من بنى قريظة . |
| ٧١ | يعرف المنافقون من غيرهم بلحن القول والعدول عن التصريح إلى الإشارة . |
| ٧٢ | فى الحديث : « مأمر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها » . |
| ٧٥ | المعاصى تبطل الحسنات . |
| ٨١ | نتائج صلح الحديبية . |
| ٨٦ | من سنن الله أن يسلط بعض عباده على بعض . |
| ٨٧ | لله جنود للرحمة ، وجنود للعذاب . |
| ٩٠ | بيعة الرضوان — بيعة الشجرة . |
| ٩٢ | معاذير بعض القبائل للتخلف عن الجهاد . |
| ٩٩ | الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد . |
| ١٠١ | نادى منادى رسول الله للبيعة وهو تحت الشجرة . |
| ١٠٢ | أمر عمر بقطع الشجرة التى بويع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى الناس يحجون إليها . |

| الصفحة | المبحث |
|--------|--|
| ١٠٤ | فتح خير ومغانها ليست بشيء إذا قيسست إلى ما بعدها . |
| ١٠٦ | قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية رجلا يحبه الله ورسوله » . |
| ١٠٧ | كتاب الصلح الذي كتب بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . |
| ١١١ | مادار من الحديث بين سهيل بن عمرو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم . |
| ١١٢ | حوار بين أبى بكر وعمر . |
| ١١٦ | قال عمر : من أصلح سريره أصلح الله علانيته . |
| ١٢٤ | ما أنشده الوفود أمام النبي صلى الله عليه وسلم . |
| ١٢٨ | رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أنفع للمؤمنين من آرائهم لأنفسهم . |
| ١٣١ | وجوب قتال الفئة الباغية . |
| ١٣١ | المؤمنون بعضهم إخوة لبعض . |
| ١٣٣ | النهى عن السخرية والهمز والهمز . |
| ١٣٧ | من عرض نفسه للتهم فلا يلومن إلا نفسه . |
| ١٣٨ | فى الحديث : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » . |
| ١٤٠ | قال على بن الحسين : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس . |
| ١٤٠ | لاتحرم الغيبة فى ستة مواضع . |
| ١٤٤ | خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وهو على راحلته . |
| ١٤٦ | القرآن علم المؤمنين الأدب فى التخاطب . |
| ١٤٧ | الفرق بين الإسلام والإيمان . |
| ١٤٨ | مقال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين . |
| ١٦١ | فى الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات » . |
| ١٧١ | الرسول صلى الله عليه وسلم مذكر وليس بمسيطر . |
| ١٧٦ | أفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية . |
| ١٨١ | القصص الذى رواه الأصمعى عن أعرابى قابله . |
| ١٨٤ | بشرى الملائكة لإبراهيم . |
| ١٨٥ | استبعاد سارة للولادة فى هذه السن . |